رثاء المدن والممالك
فى الشعر الأندلسى

أصول مشرقية :

بكاء المدن الزاهرة شعراً حين تأتى عليها الفتن المدمرة ، والممالك حين تذهب بها الثورات العاتية ، له أصول مشرقية ، أول ما نلتقى بها فى تلك الدموع الغزيرة التى ذرفها الشعراء على بغداد أثناء الفتنة بين **الأمين والمأمون** عام ١٩٧هـ= ٨١٢م ، حين حاصرها **طاهر بن الحسين** قائد جيش المأمون ، ولاقت خلاله بلاء شديداً يعجز عنه الوصف ، وحين اقتحمها كان القتال يدور من شارع إلى شارع ، ولكى يقضى الجيش على المقاومة التى لقيها كان يدك أحياء برمتها ، « وكثر الخراب والهدم حتى درست محاسنها » ، واستحالت إلى إطلال ، ولم يكن لها فى مدن العالم يومها نظير ازدهاراً وثراء وجمالا . وقد بكاها **عمرو بن عبد الملك الوراق** ، ورد ما أصابها إلى العين :

من ذا أصابك يابغدادُ بالعينِ ... ألم تكونى زماناً قرّة العينِ
ألم يكن فيك قوم كان مسكنُهم ... وكان قربُهم زيناً من الزينِ
صاح الغرابُ بهم بالبين فافترقوا ... ماذا لقيتِ بهم من لوعة البينِ
أستودع اللهَ أقواماً ما ذكرتُهمُ ... إلا تحدر ماء العيْن من عينى
كانوا ففرقهم دهرٌ وصدّعهم ... والدهر يصدعُ مابين الفريقينِ

وفيها قال إسحاق بن حسان ، أبو يعقوب **الخريمى** ، وهو من الفرس ، قصيدة طويلة فى مئة وخمسة وثلاثين بيتاً ، وصف فيها ما حل ببغداد فى نبرة آسية ، ولوعة صادقة ، صور خلالها الفتنة تصويراً دقيقاً مسهباً ، حتى لتبدو

أمام العين . حين قراءتها ، صور التخريب والدماء والقتل والذعر الذى يتغشى الناس فى الطرقات ، وانتصر فيها بحكم فارسيته للمأمون :

يابؤس بغـــدادَ دارَ مملكةٍ دارتْ على أهلها دوائرُها
أمهلها اللهُ ثم عاقبهـــــا لما أحاطتْ بها كبائرُهـــا
رقَّ بها الدين واستُخفَّ بذى الـــفضل وعزَّ الرجال فاجرهـــا
وصار ربُّ الجيرانِ فاسقُهُمْ وابتزَّ أمرَ الدروبِ شاطرُها
يُحرِق هذا ، وذاك يهدمُها ويشتفى بالنِّهاب داعرهـــــا
والكرخُ أســـواقُها معطلةٌ يستنُّ شُـذّانها وعائرها
أخرجت الحربُ من أساقطهم آسادَ غيلٍ غُلْباً قساورها
من البوارى تراسُها ومن الخـــوصِ إذا استلأمتْ مغافرهـــا
لا الرزْقَ تبغى ولا العطاء ولا يحشرُها بالعناء حاشرهـــا

وبعد ذلك بثمانين عاماً ، أو بالدقة فى سنة ٢٧٧ هـ = ٨٩٠ م ، اقتحم **الزنج** مدينة **البصرة** فى ثورتهم التى قاموا بها ، وقاوموا الدولة خلالها أربعة عشر عاما ، وقام بها ضحايا الاستغلال الذى مارسه زبانية الإقطاع تجاه المستضعفين الذين كانوا يعملون فى مناجم الملح الواقعة فى نهر الفرات الأدنى ، فغرس السخط والحقد فى نفوسهم ، ونفوس من كانوا فى مثل حالتهم . وأرسلت الدولة الجيش لإخضاعها ، ولكن ظروف المقاطعة وكثرة المستنقعات والترع جعلتهم ينتصرون على كل هؤلاء الجنود ، واعتنقوا مبادىء **الخوارج** التى اعتنقها زعيمهم **على بن محمد** ، وكانوا يقتلون دون رحمة كل من يقع فى أيديهم من الأسرى وغير المحاربين ، ويقدر عدد من ذهب ضحية وهدراً فى هذه الحرب بأكثر من نصف مليون ، وعقب إحدى المعارك بلغ عدد الرءوس التى لم تطلب من الكثرة حداً جعل الزنوج يفرغونها فى إحدى القنوات التى حملتها إلى البصرة

يتعرف عليهم أهلوهم وأصدقاؤهم هناك . ولقد هجر الناس البصرة وواسط والأهواز والأبلة ، ودمر الزنج البصرة عن آخرها .

وقد وجدت البصرة فى ابن الرومى الشاعر الذى يبكيها ، فوصف غلبة الزنج عليها ، والمآسى المروعة التى تعرضت لها ، وكعادته يهتم بالوقائع ، ويستقصى دقائق الأحداث وتفاصيلها ، وقصيدته تبلغ الذروة إحكاماً فى بنائها ، وتسلسلا فى أفكارها ، وكل بيت يسلمك إلى ما بعده ضرورة ، وفيها يتحدث عن العذارى يتعرضن للإعتداء ، ويجعلهن أبكار تأكيداً ، وأنّ فضحهن كان جهاراً ، ووقف عند الإعتداء على الأطفال وقتلهم . وألمح إلى القصور التى استحالت إلى تلال من الرماد والتراب :

ذاد عن مقلتى لذيذ المنامِ ... شغلُها عنه بالدموع السجامِ
أى نومٍ من بعدِ ماحل بالبصرةِ ... ماحلٌ من هناتٍ عظامِ
دخلوها كأنهم قطعُ الليلِ إذا راح مدلهمُّ الظلام
كم فتاةٍ بخاتمِ اللهِ بكرٍ ... فضحوها جهراً بغير اكتتام
كم رضيعٍ هناك قد فطموه ... بشبا السيفِ قبل حين الفطام
بُدِّلتْ تلكم القصورُ تلالاً ... من رمادٍ ومن تراب ركامِ
صبّحوهم فكابد القومُ منهم ... طولَ يومٍ كأنه ألف عام

وحين اجتاح التتار مدينة بغداد عام ٦٥٦هـ—١١٦١م ، وسحقوها فى غير رحمة ، وأتوا على الخلافة فيها إلى غير رجعة ، بكاها الشعراء ، بكوا المدينة والخلافة معاً ، ولكن هذا الأمر جاء وقد استقر رثاء المدن والممالك فى الشعر الأندلسى على أصوله ، ومن ثم فأمر أشعارها لا يعنينا هنا .

هل جاء الأمر فى الأندلس تقليداً لما جرى فى المشرق ؟ . لا أرى هذا ، وأكاد أقطع بأن قصيدة الخريمى فى فتنة الأمين والمأمون ، لم تبلغ الأندلس ، فصاحبها شعوبى متعصب لقومه وجنسه ، وإن سلمت عقيدته وحسن إسلامه ،

فأدارت لها بغداد ظهرها ، على ما فى القصيدة من جمال وقوة ، ربما لأن الشاعر متعصب أولا ، ومحاولة منها لنسيان الفتنة ثانياً ، ولأم الجراح بين بنى العباس ، فالقاتل والمقتول من أبناء هارون الرشيد ، ولعل الدولة نفسها رأباً للصدع كانت تدفع الناسَ إلى نسيانها ، وليس صدفة فيما أرى أن الخريمى ليسَ له ديوان كامل ، رغم رقة ما وصلنا من شعره وجودته ، وكان الطبرى ، وهو مؤرخ سياسى دقيق ، الوحيد الذى أتى بقصيدته فى الفتنة كاملة ، وأورد ابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » أبياتاً منها ، وجاء الجاحظ بأبيات منها أقل فى كتابه « الحيوان » (١) . وقصيدة هذا حالها فى المشرق بعيد أن تبلغ الأندلس الأموى وأن تؤثر فيه .

وبعيد أن يكون ابن الرومى بقصيدته وراء العاطفة التى تفجرت بين جوانح ابن حزم وصاحبه ، فشتان ما بين الأمرين والمناسبتين . فذاك يبكى مدينة سمع بخرابها ولم يعشَ فيها ، ولا تمسه محنتها من قريب ، وهذان يبكيان مهابط طالما ترددا فى أرجائها ، وقصوراً طالما أمضيا أجمل الساعات بين قاعاتها ، وجناناً نعما بوافر ثمرها ، ورطيب فيئها ، وجمال أشجارها ، إلى جانب أننى أشك كثيراً فى أن قصيدة ابن الرومى هذه عرفت مبكراً فى الأندلس ، لأن الشاعر نفسه أقلّ الشعراء تردداً فى أسماع الأندلسيين ، ولا يجىء ذكره فى مدوناتهم إلا قليلا وعرضاً ، ومن خلال الحكايات القليلة التى شهر بها . وارتبطت

---

(١) انظر :

● تاريخ الطبرى ، جـ ٨ ، ص ٤٤٨ وما بعدها ، تحقق محمد أبو الفضل ابراهيم ، سلسلة ذخائر العرب ، دار المعارف بمصر .

● ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، جـ ٢ ، ص ٨٥٥ ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٧٨ هـ = ١٩٦٧ م .

● الجاحظ ، الحيوان ، جـ ١ ص ٢٢٥ و جـ ٥ ص ٢٠٤ ، تحقيق عبد السلام هارون .

به متشائماً أو متطيراً ، أو حين يبلغ الدقة الكاملة فى التصوير ، مثل أبياته فى « صانع الرقاق » ، وأبيات أخرى شبيهة .

أما فى الأندلس فولد هذا الشعر بين الأحداث المتلاحقة ، ومن الصراع المستمر بين الأحزاب المختلفة التى قامت على أنقاض الخلافة المنهارة ، وبين الأندلسيين وغزاتهم من أفريقية ، وبينهم وبين النصارى فى شمال وطنهم ، ومهد له التغنى بحب الوطن قرية أو ضيعة ، ومدينة أو عاصمة ، وكل الأرض التى جابها الشاعر حباً فى الرحلة ، أو طلباً للرفد والمتعة ، يصف ما على وديانها من زهر وثمر ، وما فى سمائها من برق وسحب ، وما يخترقها من بحيرات وأنهار ، وما يتحرك عليها من طير وحيوان ، وما له فيها من صداقات وذكريات ، ومجالس أنس وشراب . فإذا افتقد ذلك غريباً حن إليه ، وإذا ذهبت به الحرب بكاه ، وكان لنا مع هذه المشاعر شعر يرثى المدن الذاهبة ، والممالك الضائعة ، والأرض تسقط فى يد العدو ، ويصور فى جوى صادق فواجع المسلمين . وكان لنا فى النثر الأدب المفاخر ، يبشر بتفوق الأندلس ، ويعدد سبقه ، ويزهو بعلمه ، وما يضم من عظماء الرجال ، على نحو ما نرى فى رسائل ابن حزم ، والشقندى ، وابن سعيد ، فى فضائل الأندلس (١) .

فبكاء الممالك المنهارة ، والمدن الذاهبة ، فن أندلسى أصيل فيما أرى ، وجدت دوافعه فى المشرق والمغرب على السواء ، وخص الأندلس ببعضها ، وتفرد بأنه جرى مع هذه الدوافع إلى غايتها ، فكان له معها قصيد رائع أحياناً ، ودون الجيد أحياناً أخرى ، تبعاً لثقافة الشاعر وطاقاته النفسية ، وحظه من تجارب عصره عمقاً واتساعاً . وكان وراء ذلك كله ما أسميه :

---

(١) الرسائل الثلاث توجد فى كتاب نفح الطيب للمقرى ، ج ٣ ، ص ١٥٠ وما بعدها ، طبعة احسان عباس .

● الوجدان الأندلسى :

فى أعداد قليلة لا تتجاوز الخمسين ألفاً من العرب الخلص ، وضعفهم من البربر ، أزيد أو أقل شيئاً ، جاءوا إسبانيا فاتحين ، أو مهاجرين بعد الفتح ، بحثاً عن حياة أفضل ، أو حباً فى المغامرة ، أو سعياً وراء المجهول ، أو رحالة يستهويهم الجديد ، أو رغبة فى نشر الإسلام ، أو رباطاً فى ثغوره دفاعاً عنه ، أو فراراً من اضطهاد سياسى أو قبلى أو عقيدى يلاحقهم فى المشرق . وعلى هذه الأرض الأوربية استقروا ، وتزوجوا من إسبانيات ، وبدأوا يكيفون أنفسهم مع الواقع الجديد ، لم يتخلوا عن عاداتهم ودينهم ولغتهم ، ولكنهم أيضاً لم يديروا ظهورهم وقلوبهم وعقولهم لما وجدوا على هذه الأرض ، ولم تمض غير سنوات قليلة فى عمر الشعوب ، حتى أصبحت العربية لغة كل القوم ، والإسلام دين الغالبية بينهم ، لم يفرضه سيف ، ولا أكرهت الناس عليه محاكم التفتيش ، وإنما استهوتهم فيه أشياء جميلة ، فقد كرم الإنسان ، وأعلى قدره ، واحترم إرادته ، فلا إكراه فى الدين ، والناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

ويضغط الباحثون الأوربيون ، فى جانب كبير منهم ، على الدوافع الاقتصادية ، ودورها فى دفع الناس إلى الإسلام ، ورغبة الإسبان فى تحسين أحوالهم الاجتماعية ، وأن يأخذوا بحظهم من المناصب الإدارية ، وهى قولة فيها بعض الحق ، وفيها كثير من الباطل . أما الحق فالمناصب العليا فى الجانب الأعظم منها كانت وقفاً على المسلمين ، ولكن . . كم يبلغ عدد هذه الوظائف ، فى عاصمة كقرطبة ، تجاوز تعدادها فى نهاية القرن العاشر الميلادى المليون نسمة ؟ . وأما الباطل فربط ارتفاع الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالإسلام ، فلا صلة بين الأمرين ، وبوسع أى فرد أن يملك الأموال الطائلة ، والثروات الضخمة ، والضياع الواسعة ، تاجراً أو مزارعاً أو صاحب صناعة ، دون أن

يتوقف هذا على دينه فى شيء ، ولدينا شواهد عديدة فى كتب التاريخ على نصارى أغنياء ، ويهوداً يملكون دنيا عريضة من المال والعقار ، وسوف يضيق بها المسيحيون فيما بعد ، بدءا من القرن الرابع عشر الميلادى ، ويفتعلون الكثير من الأزمات ليستولوا عليها ، تغريماً لهم أحياناً ، وتجريدهم منها مباشرة أحياناً أخرى ، وطردهم من الأندلس نهائياً فى نهاية المطاف .

على أية حال لا نكاد نبلغ القرن العاشر الميلادى ، حتى تنصهر كل العناصر الإسلامية التى سكنت شبه جزيرة إيبريا ويتكون الوجدان الأندلسى المتميز شيئاً فشيئاً ، فتخف حدة القبلية ، وتأخذ العصبية العرقية فى التلاشى ، وتبرز أشياء كثيرة تصبح مدعاة الفخر ، إلى جانب عراقة الأسرة ، كالثقافة الواسعة ، والكفاءة فى النهوض بالمناصب ، والشجاعة فى الحرب . والنجح فى معترك الحياة . نعم ظل المسلمون فى جانب ، وأهل الذمة من النصارى واليهود فى جانب آخر ، ولكن يجب ألا ننسى فى أية لحظة أن جل المسلمين كانوا من سكان شبه الجزيرة الأصليين ، قوطاً أو لاتينا ، أو من بقية العناصر الأخرى التى سبقتهم فى الوجود . وأن الفوارق الدينية لم تكن دوماً حواجز حائلة بين الصلات الإنسانية المختلفة ، التى يفرضها التعايش ، ويتطلبها تشابك الحياة ، والتعاون والتكاتف على مواجهة صعابها ، وجعلها أقل عسرا ، وأسهل تناولا ، وبخاصة فى المدن الكبرى ، وبين الطبقات الدنيا ، على حين ترتفع الثقافة بالطبقات الأخرى إلى ما فوق هذا الاختلاف ، ونعرف من اعترافات **ابن حزم** فى **طوق الحمامة** ، وكان خصما لدوداً لكل ما ليس إسلاماً ، أن مكانه المفضل فى مدينة ألمرية حين لجأ إليها ، كان دكان يهودى طبيب وعطار .

وكانت حياة الناس فى جملتها رضية ، وبخيرات وطنهم قانعون ، وإحساسهم

---

(١) انظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، طبعة دار المعارف بتحقيقنا ، ص ٣٥ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ .

بأن بلادهم تفوق جيرانها مدنية يشيع فى نفوسهم الحب لها، والحرص عليها ، على حين يثير فى أعماقهم إدراك الخطر المحدق بها ، وبعدها عن مركز الإسلام، خوفاً خفياً . ومن ثم تولد بين أدبائهم ، من شدة ارتباطهم بها ، ما أسميه :

● **شعر الحنين :**

ولست أزعم أنه وقف على الأندلسيين دون المشارقة ، فقد كنت ، وما زلت ، أرى أن المقدمات الطللية إلى شعر الحنين أقرب منها إلى الغزل أو النسيب (١) . ولكن حنين الأندلسيين جاء خاصاً ، وصادقاً ، ومتميزاً ، وكثيراً ، وازدهر حين ضاع من أندادهم فى المشرق بين صخب الحياة فى المدينة ، وعمّق إحساسهم به كثرة رحيلهم ، داخل الأندلس نفسه ، أو خارجه إلى بلاد بعيدة ، وراء الأفضل من العيش ، أو لمجرد الرحلة ، فهم فى حنين دائم إلى حياة جميلة فارقوها ، ولذاذات متنوعة عاشوا عليها ، وأناس يضطرب مع ذكرهم القلب ، وطبيعة تهفو لجمالها النفس .

أمضى **المعتمد بن عباد** أياماً من فتوته عاملا على شلب Silves (٢) أيام أبيه ، وهى مدينة حباها الله من جمال الطبيعة الشىء الكثير ، على مرمى البصر من المحيط الإطلنطى ، ذات « بسائط فسيحة ، وبطائح عريضة ، ولها جبل عظيم منيف ، كثير المسارح والمياه » ، تعلوه أشجار التفاح ، وتتضوع منه روائح العود ، « حسنة الهيئة ، بديعة البناء ، مرتبة الأسواق ، وأهلها وسكان قراها عرب من اليمن وغيرها ، وكلامهم بالعربية الصريحة ، وهم فصحاء يقولون الشعر ، وهم نبلاء خاصتهم وعامتهم » ، وكانت للمعتمد فيها خلوات ولهوات ، « فهى ملعب شبابه ، ومألف أحبابه ، عمر نجودها غلاما ، وتذكر عهودها أحلاماً ، وكان قصر الشراجيب من معالمها ، ويصفه ابن خاقان بأنه «متناه

---

(١) انظر كتابنا : امرؤ القيس ، حياته وشعره ، ص ١٥٤ وما بعدها ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧٩ .

(٢) هى الآن مدينة صغيرة في جنوب البرتغال ، قريبا من شاطىء المحيط ، تتبع محافظة الغرب algarve ، وكانت أيام الحكم الاسلامى قاعدة كورة اكشونبة ، وسقطت في أيدى النصارى عام ١١٥١ م .

فى البهاء والإشراق ، مباه لزوراء العراق » ، فلما تولى الملك بعد أبيه ، عام ٤٦١هـ = ١٠٦٩م ، اختصّ بها أحب شعرائه إليه إذ ذاك ، أبا بكر محمد بن عمار ، فوجهه إليها متفقداً لأعمالها ، فلما ودعه أهاجه الشوق ، وغلبته الذكرى ، ودعا شاعره أن ينقل إلى مرابعها تحيته :

ألا حيِّ أوطانى بشلْبٍ أبا بكرٍ ... وسلهنّ : هل عهدُ الوصالِ كما أدرى ؟
وسلِّمْ على قصر الشراجبِ عن فتى ... له أبداً شوقٌ إلى ذلك القصرِ
منازلُ آسادٍ وبيضٍ نواعمٍ ... فناهيك من غيلٍ وناهيك من خدْرِ
وكم ليلةٍ قد بت أنعمُ جُنْحها ... بمُخْصِبةِ الأرداف مجدبة الخصر
وبيضٍ وسُمْرٍ فاعلاتٍ بمهجتى ... فعال الصفاحِ البيضِ والأسلِ السمر
ليالٍ بسد النهرِ لهواً قطعتُها ... بذات سوارٍ مثل منعطفِ البدر
نضتْ بُردها عن غصنِ بانٍ منعمٍ ... نضيرٍ كما انشق الكمام عن الزهر

ويحكى **ابن بشكوال** عن الشيخ **أبى بكر بن سعادة** أنه دخل مدينة **طليطلة** مع أخيه ، على الشيخ الأستاذ **أبى بكر المخزومى** ، قال : فسألنا من أينَ ؟ ، فقلنا : من قرطبة ، فقال : متى عهدكما بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا منها ، فقال : قرّبا إلىّ أشم نسيم قرطبة ، فقربنا منه ، فشم رأسى وقبله . وقال لى : اكتب :

أقرطبةَ الغراءُ هل لىَ أوْبةٌ ... إليكِ وهل يدنو لنا ذلك العهدُ
سقى الجانبَ الغربىَّ منكِ غمامةٌ ... وقعقع فى ساحاتِ دوْحاتكِ الرعدُ
لياليكِ أسحارٌ وأرضكِ روضةٌ ... وتربُكِ فى استنشاقها عنبرٌ وَرْدُ

ويدع **ابن زيدون** قرطبة فاراً بحريته ، قاصداً إشبيلية ، ويمر فى طريقه إليها ببطليوس ، ويتوقف بها بضعة أشهر ، ويمر عليه عيد الأضحى وحيداً ، « وقد ثار به الوجد بمن كان يألفه والغرام ، وتراءت لعينيه تلك الظباء الأوانس

والآرام » ، فذكر أعياده بها ، ومتقلب نزهاته فيها ، ومضى يسترجعها مهبطاً وراء آخر :

خليليّ لا فطرٌ يسرٌّ ولا أضحى ... فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى
لئن شاقني شرقُ العقابِ فلم أزلْ ... أخصُّ بمحوض الهوى ذلك السفحا
وما انفكّ جوفيُّ الرصافة مُشْعِرى ... دواعيَ بث تُعقبُ الأسف البُرحا
ويهتاج قصرُ الفارسيُّ صبابة ... لقلبي لا يألو زناد الأسى قدحاً
. . . .
وأيامُ وصلٍ بالعقيق اقتضيتُه ... فإن لم يكن ميعادُه العيدُ فالفصْحا(١)
وآصالِ لهو في مسنّاة مالكٍ ... معاطاة ندمان إذا شئتَ أو سبْحا
لدى راكد تُصبيك من صفحاته ... قوارير خُضْر خلتها مُرِّدتْ صرْحا
معاهدُ لذّاتٍ وأوطانُ صبْوةٍ ... أجلتُ المعلّى في الأماني بها قدْحا
ألاَ هل إلى الزهراء أوْبةُ نازحٍ ... تقضي تنائيها مدامعهُ نزْحا
مقاصيرُ ملكٍ أشرقتْ جنباتُها ... فخلنا العشايا الجون أثناءها صُبحا

ويرحل الكاتب أبو بكر محمد بن القاسم ، ويلقب « اشكنهادة » (٢) ، وارتحل إلى المشرق لما نبت به قرطبة ، عند تقلب دولها ، وتحول ملوكها وخولها ، فجال في العراق ، وأقام بحلب ، ثم غلبه الشوق ، وحن إلى وطنه وأهله ، وصور لنا المهانة التي يلقاها الغريب ، أي غريب ، ويدعو قومه إلى أن يتعظوا بما قاسى ، وأن ينأوا بأنفسهم عن هذه التجربة :

أإن أقصى الغربِ من أرض حلبْ ... أملٌ في الغربِ موصولُ التعبْ

---

(١) الفصح عيد النصارى .

(٢) اشكنهادة : تعني في عامية الاندلس وشمال افريقية : ما هذا . ويبدو انها كانت من لوازم ابى بكر فعرف بها ، ووردت في « المغرب في حلى المغرب » بتحقيق الدكتور شوقى ضيف « اشكهباط » وفي الذخيرة لابن بسام ، مجلد ١ ، قسم ١ ، « اشكمياط » ، وكلاهما تحريف فيما أرى .

حنَّ من شوقٍ إلى أوطانه ... من جفاه صبرُه لمَّا اغتربْ
جال في الأرض بحاجاً حائراً ... بين شوقٍ وعناءٍ ونصبْ
كلُّ من يلقاه لا يعرفهُ ... مستغيثاً بين عُجْمٍ وعربْ
لهفَ نفسي أين هاتيك العلا ... واضياعاهُ ويا غبن الحسبْ
والذى قد كان ذُخْراً وبه ... أرتجى المالَ وإدراكَ الرتبْ
صار لى أبخسُ ماأعددْتُهُ ... بين قومٍ مادروا طعم الأدبْ
ياأحبايَ اسمعوا بعض الذى ... يتلقاه الطريدُ المغتربْ
مالكن زجراً لكم عن غُربةٍ ... يرجعُ الرأسُ لديها كالذنبْ

اما الأديب الشاعر **أبو الحسن على بن موسى بن سعيد** ، متمم كتاب « **المغرب فى حلى المغرب** » ، فقدهاجر من وطنه ، صحبة والده ، وأقام بمصر زمنا ، وامتزج بأدبائها وشعرائها ، ورحل إلى غيرها من بلاد المشرق . وعاد إلى تونس ، ثم رحل منها ثانية إلى المشرق أيضاً ، وعاد فاستقر بها أخيراً إلى أن لقى الله ، وأعطانا صورة دقيقة للغريب حين يواجه عالماً جديداً عليه للمرة الأولى ، وبخاصة فى عاصمة كبرى كالقاهرة ، فهو يقول حين وردها :

أصبحتُ أعترضُ الوجوه ولا أرى ... مابينها وجهاً لمن أدريهِ
عوْدى على بدئى ضلالاً بينهم ... حتى كأنىَّ من بقايا التيه
ويحَ الغريب توحشت ألحاظُه ... فى عالمٍ ليسوا له بشبيه
إن عادَ لى وطنى اعترفتُ بحقه ... إن التغرّبَ ضاع عمرىَ فيهِ

وفى القاهرة أيضاً حن إلى وطنه ، وأدركته وحشة قاسية ، تذكر معها ما كان يعهد بالأندلس من المواضع البهجة ، التى قطع بها العيش غضاً خصيباً ، وصحب الزمان يافعاً ولبس الشباب قشيباً ، وصور لنا هذا فى قصيدة طويلة . وازن فيها بين ما ترك هناك وما يرى هنا ، وأتى على ذكر المعاهد التى خلف فيها جميل ذكرياته ، وبقايا من حياته ومن أحبائه ، وهى طويلة ورائعة ، أتى فيها

على ذكرياته تفصيلا فى مدن الأندلس الزاهرة : إشبيلية ، والمرج ، وشنتبوس بلد ابن عمار الشاعر ، والجزيرة الخضراء ، ومالقة ، ومرسية . ولقد تتكرر التجربة ، ولها فى كل مرة مذاق خاص ، وتتشابه المهابط ، ولكل مهبط جمال متميز ، وفاق ابن سعيد أقرانه فى أنه وقف عند كل ذكرى طويلا ، فأعطاذا لها صورة مجسمة ، لم يقف بها عند مجرد الحنين والشوق ، وإنما حرص على أن يقدم لنا كل دقائقها ، فالسواقى تتهادى ، والحمائم تشدو ، وجميلات شنتبوس يشرقن من النوافذ ، وغناؤهن فى جماله يكرهك على أن تسمع وإن لم ترد ، وفى عفوية آسرة يتمنى : « ليتنى هناك ما زلت أذنب ، فالبلدة طيبة ، والله غفور رحيم ! » .

هـذه مصرُ فأين المغـربُ؟ منذ نأى عنى دموعى تسكبُ
فارقته النفسُ جهلاً إنمـا يُعرف الشيءُ إذا مايذهبُ
أين حمصٌ ، أين أيامى بها ؟ بعدها لم ألْقَ شيئاً يُعجب
كم تقضّى لى بها من لذةٍ حيثُ للنهرِ خريرٌ مطـربُ
وحمام الأيك تشدو حولنا والمثانى فى ذراها تصخب
أى عيشٍ قد قطعناه بها ذكره من كل نُعمى أطيب
ولكم بالمرج لى من لذّةٍ بعدها ما العيش عندى يعذب
والنواعير التى تذكارهـا بالنوى عن مهجتى لا تُسلبُ
ولكم فى شنْتيُوسٍ من مُنىً قد قضيناهُ ولا من يعتب
حيث هاتيك الشراجيبُ التى كم بها من حُسْن بدر مُعْصَبُ
وغناءٌ كل ذى فقرٌ لـهُ سامعٌ غصباً ولا من يغصبُ
بلدةٌ طابتْ وربٌ غافرٌ ليتنى مازلتُ فيها أذنُبُ(١)

---

(١) اجتزأنا من القصيدة بالابيات السابقة ، ويمكن العودة اليها كاملة في نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٢٨١ — ٢٨٢ ، طبعة احسان عباس .

هذه ملامح عامة ، غير مستقصية ولا مطنبة ، بجوانب من شعر الحنين ، ونلمح معها أنه لم يبدأ إلا بعد القرن العاشر الميلادى ، حين انصهر الأندلس فى دولة ، ونما إحساس الناس بالوطن على مهل ، وهو شعر نظائره قليلة فى المشرق . ولافت للنظر أيضاً أن العرب أو البربر الذين جاءوا إلى الأندلس واستقروا فيه ، لا نعرف لهم حتى ولا فى الأعوام الأولى ، خارج التشبيهات المطروقة تجىء عرضاً ، شعرا يحنون فيه إلى أيامهم الأولى ، فى مهابطهم التى قدموا منها ، هناك فى شمال إفريقية ، أو مصر ، أو الشام ، أو العراق ، أو الجزيرة العربية . ولا أعرف غير مقطعات ثلاث للأمير **عبد الرحمن الداخل** ، ومنها ما ينسب لغيره ، وجاءت كل واحدة منها فى أربعة أبيات ، يتشوق إلى معاهد الشام فى مقطوعة ، ويناجى نخلة فى اثنتين ، وهو استثناء يدعم القاعدة ولا ينقضها ، فقد جاء عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس مكتمل الوجدان والذوق ، ورأى نفسه وباعترافه غريباً على أرض الأندلس ، وما كان ممكناً أن يتأسى هنا عن أمسه هناك ، فقد خلف وراءه خلافة عظيمة انتزعت من بيتهم ، وانتهى به المطاف أميراً على مقاطعة من مقاطعات الخلافة ، محدودة المساحة والقدرة والمجد ، صنعها بيده ، وظلت مجهولة القدر والمصير حتى آخر أيامه ، فهى لا تعوضه ولا تنسيه أمجادهم هناك .

وقد تولد عن جمال الأندلس فى جملته ، وحب الناس له فى عامتهم ، وارتباطهم به وطناً حين يقيمون عليه ، واحتفاظهم له بذكرى حنون حين يفارقونه ، أن بكاءهم عليه ، حين يعرض له مكروه ، يجىء حاراً صادقاً ومن أبعد أغوار النفس . ويمكن أن نجمل المكاره التى تعاورت الأندلس فى هذا المجال فى ألوان ثلاثة : مدن خربتها الثورات والفتن ، وملوك أزاحهم المسلمون أنفسهم ، وبلاد استولت عليها النصارى ، ولكل لون شعراؤه وطابع بكائه ، وكانت قرطبة عاصمة الخلافة ، وجوهرة مدن الأندلس ، أول مدينة أتت عليها الثورة ، وامتدت بها أعواماً ، وشاركت فيها كل الجماهير .

• بكاء قرطبة :

حين تولى **عبد الملك** بن المنصور بن أبى عامر **الحجابة** بعد أبيه ، واتخذ اسم **المظفر** لقباله ، وواصل سياسة والده ، كان « الأندلس يشهد تغيراً جذرياً فى حياته . لقد حل الصراع الطبقى محل الصراع العنصرى ، وظهرت اتجاهات جديدة فى الدين والسياسة ، وطفت على السطح الظواهر العامة التى تسبق أية ثورة ظهرت قديماً ، أو حتى فى أيامنا هذه ، والتى ستودى بالخلافة بعد قليل : سخط عام وعميق ، وفساد حقيقى يمتد واقعاً أو تصوراً إلى الطبقة الحاكمة ، وثروات ضخمة تظهر فجأة دون مقدمات ، ولا يملك أصحابها من المؤهلات أو رأس المال شيئاً ، إلا صلات مريبة بالحكام ، أو من يتصل بهم من زوجات وبنين وبنات وموظفين ، وشيوع من يحكمون فى الظلام ، أو من وراء ستار ، أو بالتعبير السياسى الحديث أولئك الذين يحكمون وليسوا مسئولين لا دستورا ولا عرفاً ، ومكاسب قليلة ، براقة وخادعة ، تسكر الحاكم ، وتذهب بعقله ، وتغرس فيه الغرور بدل التأمل ، ومحاولات غير جادة وفاشلة لوقف ذلك كله ، ثم تنفجر الأرض عن تنظيم سياسى خفى ، يأتى بنظام جديد غير متوقع ، حتى لأولئكم الذين يفكرون فى التغيير أو قاموا به »(١).

ولم تطل أيام المظفر . شهد طلائع الثورة ، وإمارات التغير ، ورحل فى زهرة شبابه قبل أن يطحنه ثقلها عام ١٠٠٨ م ، وتولى الحجابة بعد أخوه **عبد الرحمن** الملقب **«شنجول»** ، فى سن طرية لا يتجاوز العشرين عاماً ، ويفتقد كل الخصائص والمزايا التى كانت لأبيه أو أخيه من قبل ، وحدثت نفسه أن يصبح ولى عهد هشام الثانى ، فثار عليه أعضاء البيت الأموى وقتلوه ، وانفجرت الثورة ، واحتدم الصراع عنيفاً ومدمراً بين الفئات المتصارعة ، من

---

(١) د . الطاهر أحمد مكى ، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص ٥٠ — ١٠٦ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ م .

عرب وبربر وإسبان ، وأمويين وشيعة ، وأتينا على أحداثها تفصيلا فى كتابنا « **دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة** »، واستمرت حتى عام١٠٢٦م، وعبر أحداثها تعرضت العاصمة الجليلة والجميلة لكل ألوان المهانة ، من الذبح الجماعى الشامل للشيوخ والنساء والأطفال ،والنهب والتدمير والحرائق ، ومعها تحول أفخم ما عرفت أوربا والعالم على أيامها ، وعلى أيامنا أيضاً ، إلى أكوام من الخرائب والأنقاض ، وأتت على كل ضواحيها الجميلة . بما فيها الزهراء والزاهرة ، ومات الناس جوعاً ، وفنيت المواشى ، وعمت البطالة ، وأغاض الشقاء الشامل كل بوادر الأمل ، وتكفل وباء بالطاعون بالقضاء على ما أفلت من هذه المحن .

خلال هذه الفتن أتى البربر على بيوت آل حزم فى بلاط مغيث ، وترك ابن حزم نفسه العاصمة نجاة بشخصه ، حين انهارت مقاومة الخليفة الذى وقف إلى جانبه ، وعمل معه وزيراً ، فلجأ إلى ألمرية ، وبقى فيها فترة ، جاء خلالها من يحدثه عن قصورهم ، وما فعل الزمان بها ، فبكاها نثراً وشعراً ، وجاء نثره فيها جميلا ، يعكس مأساته فى صدق ، ويصور محنة العاصمة فى دقة ، وينضح تشاؤماً وزهداً ، عرض لما كانت عليه بيوتهم وقرطبة إجمالا ، وما انتهى إليه حالهما ، فى جمل قصيرة مزدوجة موجعة ، وتمثيل مجسم حزين الإيقاع ، تكاد معه ترى كل شىء وتلمسه ، وغلبت على أسمائه صيغة الجمع ، سالماً أو مؤنثاً أو مكسراً ، واتكأ كثيراً على ما أسميه الطباق النفسى ، فهو يضع ما كان فى مواجهة ما هو كائن ، بشراً ، أو حيواناً . أو جماداً ، أو حركة ، إلى جانب الطباق بين المفردات(١) .

وألحق بنثره فيها قصيدة كاملة من الشعر ، اقتصر منها ناسخ طوق الحمامة

---

(١) يمكن العودة الى هذا النص في « طوق الحمامة » بتحقيقنا ، ص ١٢٦ و ١٢٧ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ .

على بيت واحد فحسب ، وجاء ابن الخطيب فى كتابه « أعمال الأعلام »(١) بأبيات منها تبلغ العشرين ، لا ندرى معها إن كانت هذه هى القصيدة كلها أو جانب منها ، لأن ابن حزم طويل النفس فى شعره عادة . والمعانى التى تتردد فى الشعر هى نفسها التى جاءت فى النثر ، مع تفصيل فى هذه، غير أنه أشار فى الشعر إلى أنه ترك قرطبة مجبراً ، ولو استطاع لآثر أن تكون له قبراً ، وردّ ذلك إلى القدر النافذ يمضى طوعاً أو كرهاً :

فيادارُ لم يقفرْكِ منا اختيارُنا ولو أننا نسطيعُ كنتِ لنا قبرا
ولكنّ أقداراً من الله أُنفذتْ تدمِّرنا طوعاً لما حلّ أو قهراً

وحمل الأبياتَ تحيته إلى أهل قرطبة ، إلى أى مكان نزحوا ، ودعاهم إلى الصبر وإن كان طعمه مراً :

ويادهرُ بلِّغ ساكينها تحيّتى ولو ساكنوا المروين أوجاوزوا النَّهرا
فصبراً لسطوِ الدهرِ فيهم وحكمهِ وإن كانَ طعْمُ الصبرِ مستثقلاً مُرّا

وأسلوب ابن حزم فى الشعر ، كأسلوبه فى النثر ، يقوم على الموازنة بين الأمس والحاضر ، ما كان لهم وما صاروا إليه ، وتميز بمناجاة الدهر ، وتمنى العودة ، ويُكثر فيه من استخدام أداة النداء، والطباق بين الألفاظ ، غير أن الصور الأدبية فى النثر أرق وأدق منها فى الشعر ، ربما لأنه فى النثر كان حراً طليقاً ، فلما حاول أن يأتى شعراً على ما قاله نثراً وجد نفسه مقيداً بالمعانى والأفكار والصور التى أبدعها فى هذا، فهى فى النثر عفوية وفى الشعر صناعة. وفقدان الحرية فى الفن ، وفى كل شىء فى الواقع ، فى أى جانب منها ، يفسد على الفنان إبداعه ويهبط به .

وثانى من بكى قرطبة وقد صارت أطلالا ، الشاعر الناقد أبو عامر بن

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ونشر باسم تاريخ اسبانيا الاسلامية ، ص ١٠٧ و ١٠٨ ، تحقيق ليفى بروفنسال ، الطبعة الثانية ١٩٥٦ .

شهيد ، المتوفى عام ٤٢٦هـ = ١٠٣٥م ، وكان نداً لابن حزم ، ويكبره بعامين ، وتربطهما صداقة وطيدة ، يدعمها التوافق فى المزاج ، والتقارب فى الأهواء ، ووحدة الطبقة ، فكلاهما وزير وابن وزير (١) ، ولكن ابن شهيد لم يفارق قرطبة كصاحبه ، وعاش نهاية أيام العاصمة عن قرب ، وشهد مأساتها كاملة ، وصوته لا يبلغ قرطبة من بعيد ، وإنما يصدر من أعماقها ، بين الأطلال وأكوام الخرائب ، وجاء صدى لهذا الواقع الأسيف كله ، وهو يتلفت حوله فلا يرى أحداً يستجير به ، فالناس جلهم قتلى ضمّهم القبور ، والقلة الباقية توزعتها الطرق مولية ، وأين اليوم فى بلقعه وخوائه ووحدته من شمل جامع بالأمس ، وعيش أخضر ، وروائح يفتر منها العنبر ، الأمن يلفها ، والقوم ينعمون بجمالها ، والقصور طيبة ومن فيها أجمل ، لقد نزلت بها النوى فدمّرت المسكن والساكن ، وتغيرت الدنيا ومن عليها ، ولم يملك ابن شهيد غير أن يدعو لها بالغيث ينزل بساحتها ويحيى رياضها ، وأن يجود الفرات ودجلة والنيل بساحتها ، ويأسى على ماكان من أيامها وظبائها وسلامها ، وما عمرت به من كرام وعلماء ، وأدباء وظرفاء ، وسراة ورواة ، مضى كل هؤلاء ، ولهم جميعاً قلبه يتفطر :

مافى الطلولِ من الأحبّةِ مُخبرُ ... فمن الذى عن حالها نستخبرُ
لا تسألنَّ سوى الفراقِ فإنه ... يُنبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جـار الزمانُ عليهمُ فتفرقوا ... فى كل ناحيةٍ وباد الأكثر
جرت الخطوبُ على محل ديارهم ... وعليهمُ فتغيرتْ وتغيّروا
فلمثلِ قرطبةٍ يقل بكاءُ من ... يبكى بعينٍ دمعهُا يتفجـــرُ
عهدى بها والشملُ فيها جامعٌ ... من أهلها ، والعيش فيها أخضرُ
والدارُ قد ضربَ الكمالُ راوقه ... فيها ، وباعُ النقص فيها يقصر

---

(١) راجع نشاطهما المشترك في قرطبة في كتابنا : « دراسات عن ابن حزم ، وكتابه طوق الحمامة » ، ص ٧٦ ، الطبعة الثانية ١٩٧٧ .

ورياحُ زهرتها تلوح عليهمُ بروائح يفترُّ منها العنبر
والقوم قد أمنوا تغيُّر حُسنها فتعمَّموا بجمالها وتأزّروا
ياطيبهمْ بقصورها وجذورها وبدُورها بقصورها تتخدّر
ياجنّةً عصفتْ بها وبأهلها ريحُ النوى ، فتدمرت وتدمروا
آسىَ عليكِ من السماتِ وحُقَّ لى إذ لم نزل بلكِ فى حياتكِ نفخر
يامنزلاً نزلتْ به وبأهله طيرُ النوى ، فتغيروا وتنكروا
جاد الفراتُ بساحتيك ودجلةٌ والنيلُ جادبها وجاد الكوثر
وسُقيتَ من ماء الحياة غمامةٌ تحيابها منكَ الرياضُ وتزهرُ
أسفى على دارٍ عهدتُ ربوعها وظباؤها بغنائها تتبخترُ
أيام كانت كف كل سلامة تسموا إليها بالسلام وتُبْدُر
حزنى على سرواتها ورواتها وثقاتها وحماتها يتكرر
نفسى على آلائها وصفائها وبهائها وسنائها تتحسر
كبدى على علمائها ، حلمائها أدبائها ، ظرفائها ، تتفطر(١)

إذا وازنا بين ابن حزم وصاحبه ابن شُهيد وجدناهما يتفقان فى أشياء ويختلفان فى أخرى ، فالأول لاذ بالصبر واتكأ عليه ، وتنضح أبياته زهداً وتشاؤماً ، وردَّ ما حدث إلى الدهر والقدر ، أما الثانى ، وهو ابن شهيد ، فلم يدع أصلا إلى الصبر ، وإيقاعه ، مع ذلك ، هادىء مستسلم ، ورأى ماحدث جوراً من الزمان ، وعرض لما كان فى المدينة من مجالس العلم ، والفن وألوانه . ولم يشر ابن حزم إلى شىء من هذا . وبعامة كان ابن شهيد ، وهو شاعر أصلا ، أرق موسيقا ، وأسلس لفظا ، وأوضح عفوية . وكان فى شعر ابن حزم ، وهو بعض مواهبه ، شيئاً من البطء والرتابة ، يوحى بأنه ينتزع أبياتها انتزاعاً ، فتجىء تجرها خيول على حد التعبير الإسبانى ، ويتحرك معها ، أو

(١) ديوان ابن شهيد ، القصيدة رقم ٢٦ ، ص ١٠٩ ، وأبياتها هناك ثلاثين بيتا .

بها ، داخل أسوار عالية لا يستطيع اجتيازها ، وكثرت فيها المحسنات اللفظية من جناس وطباق ، وهو أمرٌ قل أن يجيء عفوا ، ولكن الحق أن كليهما كان يصدر عن عاطفة صادقة وقلب كليم ! .

●

كان بكاء ابن حزم وصاحبه مدينتهما الحلوة فاتحة رثاء كثير خُصَّتْ به ، حزين وعابر ، يجيء فى أبيات قصيرة ، أو هذا ما وصلنا منه ، خطرات نفس مكلومة ، قبل لحظة المحنة ، كتلك الأبيات التى حفظها لنا ابن عذارى ، فى كتابه « **البيان المغرب** » لشاعر مجهول لم يذكر اسمه ، يبكى فيها عاصمة الخلافة :

ابْكِ على قرطبةَ الـزينِ ... فقد دهتْها نظرةُ العيْنِ
أنظـرَها الـدهرُ بأسلافهِ ... ثم تقاضى جمـلةَ الديْنِ
كانت على الغاية من حسنها ... وعيشـها المستعذبِ الليْنِ
فانعكس الأمرُ فما إنْ ترى ... بهـا سـرورا بين اثنيْنِ
فاغدُ وودعها وسْر سـالما ... إنْ كُنْتَ أزمعتَ على البينِ

وهى أبيات فاترة الروح ، مجرد نظم دفع صاحبه إليه هول الكارثة ، فهو أصلا ليس بشاعر . ونلتقى بشاعر مجهول آخر ، والرواية لابن عذارى أيضاً وهو يأخذ طريقاً مختلفاً عن صاحبه ، فهو يشمت فى القرطبيين شمت المغيظ ، وينعى عليهم غفلتهم ، وما ركنوا إليه من حياة الدعة ، وأنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، والأبيات قيلت فيما يبدو فى بداية الفتنة ، لأنه يعتب على مواطنيه كيف غفلوا عن حالهم ولم ينتبهوا إليه ، ولو فعلوا لبكوا دماً ، ويدعوهم إلى تدبر الأمر لأن المحنة عمتهم جميعاً ، ولن تنقضى أبداً :

أضعتمُ الحزمَ فى تدبير أمركمُ ... ستعلمون معاً عُقبى البوار غدا
فلو رأيتم بعين الفكر حالكم ... بكيتمُ بدمٍ أنْ دُمتُمُ بددا

لاكنَّ سُبْلَ العمى أعمت بصائركم فألبستم ثياباً للبلى جُدُدا
ياأمّةً هتكتْ مستورَ سوءتها ماكلُّ من ذلَّ أعطى بالصّغار يدا
فى سورة الحشر آياتٌ مفصّلة(١) فى شأنكم أنزلتْ لم تعدُكم أحدا
نعم وفى الكهف فى العشرين خاتمة(٢) تقضى عليكم بألاّ تفلحوا أبداً
فاستشعروا سوء عقباكم فقد شملتْ جميعكم محنةٌ لا تنقضى أبداً

والأبيات توحى بأن قائلها فقيه متوسط ؛ فهو يعطى الفتنة تأثيراً فقهياً خالصاً ، وعلى الرغم من جودة الأفكار لم يستطع أن يضعها فى صورة جميلة أو إيقاع أخاذ ، ومعجمه اللغوى محدود ، حتى أن كلمة القافية فى البيتين الأخيرين جاءت واحدة ، حروفاً ومعنى .

وبعد انتهاء الفتنة بأعوام ليست دون الأربعين ، وخلال عصر الطوائف الذى قام على أنقاض الخلافة ، جاء « باقعة عصره ، وأعجوبة دهره » ، الشاعر الرافض ، الثائر على واقع أيامه الفاسدة ، **خلف بن فرج السميسر** إلى قرطبة فى تاريخ نجهله ، ولكنه ليس قبل عام ٤٤٠هـ=١٠٤٨م على التأكيد : فوقف بأطلال الزهراء يناجيها ، ويستخرج العبرة مما آل إليه حالها ، ويبكى مجداً تليداً كانت تمثله ، وحياة عامرة كانت تصطخب فيها :

وقفتُ بالزهراء مستعبرًا معتبراً أندبُ أشتاتاً
فقلتُ : يازهرا ألا فارجعى قالت : وهل يرجع من ماتا
فلم أزلْ أبكى وأبكى بها هيهات يُغنى الدمعُ هيهاتا
كأنما آثارُ من قد مضى نوادب يندبن من ماتا

وحديثه عنها ، كما نرى ، على شاعريته حديث من يندب أطلالا ومجداً

---

(١) يشير الى الآية رقم ١٩ من سورة الحشر « ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .
(٢) يشير الى الآية ١٠١ من سورة الكهف : « الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا » .

تومىء إليه ، ولأنه لم يشهد الأحداث نفسها لم يعرض لما أصاب الناس والحياة وقرطبة العاصمة ، ومن المؤكد أنه عندما جاءها وجد الحياة دبت فيها من جديد ، فعاد خرابها عمارا ، وارتفعت أطلالها بيوتاً ، وإن لم تعد إلى ما كانت عليه حتى يومنا هذا ، أما الزهراء فظلت أنقاضاً لم يرتفع فيها بناء ، ولا امتدت إليها يد إصلاح ، حتى سنوات قليلة خلت ، فقد أخذ الإسبان ينفضون عنها غبرة الموت ، ويعيدونها حجراً إلى حجر ، لمجرد رسم صورة ، ولو باهتة ، لما كانت معالمها عليه .

■

تتردد أفكار الشعراء فى تناول المحنة وأسبابها بين السلبية والإيجابية ، بين الرضى المستسلم والشماتة المثيرة ، أو التأمّل الهادىء ، وكلها تصدر عن نبع واحد ، فحين تحل الخطوب الجسام بالشعوب المتحضرة تفقدها لحين القدرة على التمييز الدقيق ، والتفكير المنطقى ، فتعود إلى القلب بدل العقل ، وتفسر الأمر عن طريق العاطفة بدل الفكر ، وتركن إلى أوهى الأسباب هروباً من واقعها الأليم .

ولم يعرض أىٌّ منهم ، فيما وصلنا من شعر ، لعناصر الشر ورءوس الفتنة ، ولم ينحوا باللائمة على أحد ، وبخاصة ابن حزم وابن شهيد ، وكلاهما شهد المأساة ، ولهما مقام اجتماعى وسياسى ملحوظ فى العاصمة . وشاركا فى أحداثها أتراهم كانوا يحسون فى أعماقهم بأن إلقاء المسئولية على فريق بعينه فيه عدوان على الحق ؟ . وأن كل الذين فى قرطبة مسئولون عما حدث ؟ . نحن نعرف أن بن حزم ظل إلى آخر رمق فى حياته ، حتى بعد أن ترك السياسة جانباً ، وامتدت به الحياة طويلا ، يلتزم جانب الشرعية فيما يتصل بقضية الخلافة ، فبقى على ولائه لبنى أمية لا يحيد عنه ، ونعرف أنه كان جريئاً فى الحق ، يقول ما يعتقد بصوت مرتفع ، ومضى يناضل وحيداً ضد الجميع ، وضد كل شىء ، ولا يمكن أن نعزو صمته إلى أنه مجاملة أو خوفاً من أحد . أما ابن شهيد

فباح بآلامه من العاصمة نفسها ، ومغامرة منه أن يدين أحداً فى لحظة انزوى فيها القانون ، وحل مكانه الرعب والفوضى ، والآخرون ، وهم مجهولون ، يبدو أنهم من غمار الناس ، ليست لديهم القدرة على إدانة أحد ، فآثروا السلامة ، وردوا كل شيء إلى القدر .

●

وبعد نصف قرن من أحداث قرطبة ، سوف نلتقى بقصيدة **ابن رشيق القيروانى** ، فى رثاء مدينته القيروان ، حين اقتحمها عرب صعيد مصر ، والذين عرفوا باسم **الهلالية** ، عام ٤٤٩هـ-١٠٥٧م ، بعد حصار لها دام أربع سنوات ، وصنعوا ما صنع جند طاهر بن الحسين بمدينة بغداد ، أو الزّنج بمدينة البصرة ، أو البربر بقرطبة . وهى قصيدة طويلة تبلغ خمسة وخمسين بيتاً ، تحدث فيها عن العلماء والزهاد والأئمة الذين ازدانت بهم مدينة القيروان أيام عزها :

كم كان فيها من كرام سادةٍ ... بيض الوجوه شوامخ الإيمانِ
متعاونين على الديانة والتّقى ... لله فى الإسرارِ والإعـلانِ
وأئمّةٍ جمعوا العلوم وهذّبوا ... سُنن الحديث ومُشْكل القرآنِ
علماء إنْ ساءلتهم كشفوا العمى ... بفقاهةٍ وفصاحةٍ وبيانِ

ووصف ما لحقها من الفظائع وكيف نقضوا العهود ، وخفروا الذمم ، وسبْوا الحريم ، ونهبوا البيوت وما فيها ، وصور خروج الناس حفاة هاربين يحملون أطفالهم :

فتكوا بأمة أحمدٍ أتراهـمُ ... أمنوا عقاب الله فى رمضان ؟
نقضوا العهودَ المبرماتِ وأخفروا ... ذمم الإله ، ولـم يفوا بضمان
فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا ... سبْىَ الحريم وكشفة النسوان
والمسلمون مقسّمون تنالُهم ... أيدى العُصاةِ بذلّةٍ وهوانِ
يستصرخون فلا يُغاث صريخهم ... حتى إذا سئموا من الإرنـان

فادوا نفوسهمُ فلما أنفدوا ... ما جمّعوا من صامتٍ وصوان
واستخلصوا من جوهرٍ وملابسٍ ... وطرائفٍ وذخائرٍ وأوانى
خرجوا حفاةً عائذين بربّهم ... من خوفهم ومصائبِ الألوان
هربوا بكل وليدةٍ وفطيمةٍ ... وبكل أرملةٍ وكل حصان
وبكل بكر كالمهاة عزيزةٍ ... تسبى العقولَ بطرفها الفتّان

وعرض لما أصاب **مسجد عقبة** ، وكان ثانى مسجد هام أقيم فى إفريقية كلها ، ورابع مسجد فى الإسلام (١) ، بناه عقبة **بن نافع** عام ٦٧٥م ، وكيف توقفت الصلوات به ، وما أصابه من محن تبعث الأسى ، وتثير الحزن فى الناس كافة :

والمسجدُ المعمورُ جامعُ عقبةٍ ... خربُ المعاطن ، مظلمُ الأركانِ
قفرٌ فما تغشاه بعد جماعةٌ ... لصلاةِ خمسٍ ولا لأذان
بيتٌ بوحيِ اللهِ كان بناؤه ... نعْمَ البنا والمبتنَى والبانى
أعظم بتلك مصيبة ماتنجلى ... حسراتُها أو ينقضى الملوانِ

وأفاض كثيراً فى ذكر المحن التى حلت بالقيروان ، وجعلتها خراباً لقرون تلت ، وتمنى لها أن تعود إلى سابق مجدها ، وطيب أيامها :

أتُرى الليالى بعدما صنعتْ بنا ... تقضى لنا بتواصلٍ وتدانِ ؟
وتعيد أرض القيروان كعهدها ... فيما مضى من سالف الأزمان

ومن الواضح أن عاطفة الشاعر باردة ، وأسلوبه فيها ركيك يبلغ حد الإسفاف أحياناً ، وتكاد أن تكون منظومة تاريخية ، ومرد ذلك ، فيما أرى ، أن ابن رشيق كان ناقداً فى المقام الأول ، فجاءت قصيدته تحمل سمات شعر العلماء والفقهاء من نظم وبرود وتكلف .

---

(١) أول مسجد أقيم في افريقية ، وثالث مسجد في الاسلام ، هو الذى بناه عمرو بن العاص في فسطاط مصر القديمة عام ٦٤٢ م .

غير أن القيروان الخربة وجدت من يبكيها صادق اللوعة . وفى شعر بالغ الروعة ، فى شخص **ابن شرف** القيروانى ، المتوفى عام ٤٦٠هـ=١٠٦٧م ، وكان صديقاً لابن رشيق ، ورفيقاً ملازماً ، وغادر كلاهما عاصمة أفريقية بعد خرابها ، انتقلا إلى المهدية أولا ، وإلى **صقلية** من بعد . وفى هذه استقر ابن رشيق ، وآثر ابن شرف أنه يدعها إلى **الأندلس** ، وفيه أمضى بقية حياته ، جاءه على أيام ملوك الطوائف . وأقام به عشر سنين موزع القلب والعاطفة ، حائر العقل والفكر . وفيه وقبله قال شعراً كثيراً رقيقاً ضاع معظمه ، وكتب عشرين مقامة يعارض بها الحريرى ، لم يبلغنا منها غير ثلاث : اثنتين فى النقد الأدبى ، والثالثة جرت مجرى الهزل والمجون .

ومن بين ما وصلنا من شعره قصيدته فى بكاء مدينة القيروان . وهى من روائع الشعر العربى ، دقة تصوير ، وبراعة تعبير ، ورقة موسيقا . وصف فيها المدينة وقد لفها الظلام ، وأطبقت عليها الوحشة . وعمها الصمت ، وخلت منها الحياة ، ومست المأساة حتى نجومها فى أفق السماء ، فهى تتحرك ثقيلة الخطا ، بطيئة الحركة ، فاترة متوانية ، كأنما يتغشاها النعاس :

آه للقيروان ! أنَّةُ شجو ... من فؤادٍ بجاحمِ الحزنِ يصلَى
حين عادتْ بها الديارُ قبوراً ... بل أقولُ الديارُ منهن أخلى
ثم لا شمعةٌ ، سوى أنجم تخـــطو على أفقها نواعس كســلى
بعد زُهرِ الشماعِ توقد وقدا ... ومتانِ الذُّبالِ تُفتَل فتلا
والوجوهُ الحسانُ أشرقُ منهــن ، ويفْضلنهن معنىً وشــكلا

وفاق كل رفاقه من الشعراء ممن عبروا عن هذه الفواجع ، بأنه قدم لنا صورة مفصلة لواقع الهاربين من هذه المدن ، رجالها ونسائها ، شيوخها وأطفالها ، وقد سارت بهم الطرق ، وازدحمت بهم المسالك ، وتوزعتهم المآسى ، وتعرضوا للعدوان الوحشى ممن لا ضمير له ، ولا يرقب فى العزّل إلاّ ولا ذمة . خلفوا

وراءهم ما يملكون من ثياب وأثاث وأموال ، وخرجوا فراراً لم يودعهم جار ، ولا حياهم قريب ، يلقون المذلة والهوان فى كل بلد يحلون به ، أشرافهم يعملون أخس المهن ، ولأرذل الناس ، وليس هناك من يعزى أو يواسى ، أو يعين على تجاوز المحنة . إنها صورة حية لواقع من نطاق عليهم فى أيامنا هذه اسم «اللاجئين» ، فى أى بلد ، ومن أى شعب :

بعد يوم كأنما حُشرَ الخلْـــقُ حفاةً به ، عوارىَ ، رجْلىَ
ولهم زحمةٌ هنالك تحكـــى زحمة الحشرِ والصحائفُ تتلى
وعجيجٌ وضجّـةٌ كعجيج الخلْـــق يبكون والسرائر تبـــلى
من أيامىَ وراءهن يتامىَ مُلئوا حسْرةً شجواً وثكْـلا
وحصانٍ كأنها الشمس حُسْنا كنفتْها الأطمارُ . بجلاءَ ، كحلى
فات كرسيها الجلاء فأضحت فى ثيابِ الجلاء للناس تُجلىَ
جار فيهمْ زمانُهمْ وأولو الأ مر ففروا يرجون فى الأرض عدلا
تركوا الربعَ والأثاث وما يثْـــقل،لا حاملٌ من الناس ثقلا
لبســـوا الباليات من خشن الصو ف ، وعاد النبيهُ فى الناس غفلا
نادباتٌ : عفراء تُسعد سُعدى وسعادٌ تجيبُ بالنوْح جمـــلا
ليس منهنَّ من يودعُ جاراً لا ، ولا حرمةٌ تشيُّع أهـــلا
كلهن اعتدى الفراقُ عليه فاقتحمن الجلاء حفلاً فحفلا
فإذا الدهرُ ضمَّهم فرق الدهْـــر لهم غير ذلك النبل نبلا
من ثعابين حاملين نيوبـــاً عصلا : ذابلا ونبلا ونصلا
وشياطين راحين يلاقـــو ن بجوف الفلا مساكين عُزلا
فتعرّى الظهور تعتل عتـــلا وتشق البطون تُغسل غسلا
فإذا مطمع أصابـــوه فى أحْشـــاء قـــومٍ غموا بذلك كُلا
فإذا نجت المقادير منهم راحلاً بالخلاص يحمل رحلا

لقى الهوُن والمذلّة أنّى ... كان فى سائر البلاد وحلاّ
ليس يلقى إلا امرأً مستطيلاً ... طالباً عنده حقوداً وذحْلا
فترى أشرف البريّة نفساً ... ناكساً رأسه يلاطف نذْلا
فهُمُو كلّ مانبتْ بهم أرْ ... ضُ مطايا الفراق خيْلا ورجْلا
مُزقوا فى البلادِ شرقاً وغربا ... يسكبون الدمع هَطْلا ووبلا
لا يلاقى النسيبُ منهم نسيباً ... يتعزّى به ولا الخلُّ خِلا

●

هل يمكن القول بأن ابن رشيق وصاحبه ابن شرف فى قصيدتيهما احتذيا أحد الرجلين ، أبا شُهيد أو ابن حزم ، وكلاهما تجاوزت شهرته حدود وطنه ، وكانت إفريقية خلال عصر الطوائف على صلة وطيدة بالممالك التى ينحدر أمراؤها من أصول بربرية خاصة ، أو جاءوا إلى الحكم بدعم منها ، ولم تتوقف الرحلات بين الجانبين ، قدوماً وذهاباً ، من مختلف الطوائف والطبقات ، أدباء وعلماء وجنوداً ، ومن عامة الناس ، رغم التفاوت الشديد بينه وبينهما فى الجودة والأسلوب والأفكار ؟ بلى .

ولكن ، يمكن من جانب آخر أنها أيضاً جاءت وليدة تأثير مشرقى ، لأن أفريقية ظلت تلعب على امتداد العصر الوسيط دور الناقل ، ومركز الالتقاء بين الثقافتين المشرقية والأندلسية ، ولو أن القيروان فى ثقافتها كانت أقرب إلى الأولى منها إلى الثانية ، وهو ظن يدعمه أن قصيدة ابن رشيق أقرب فى أفكارها إلى قصيدة ابن الرومى منها إلى ابن حزم وصاحبه ابن شهيد ، على حين جاء ابن شرف نسيج وحده فى جل أفكاره .

رثاء المدن والممالك
فى عصر الطوائف

● طابع عصر :

« كان أحسن الأزمان وأسوأها ، عصر الحكمة وعصر الجهالة ، عهد اليقين والإيمان وعهد الحيرة والشكوك ، أوان النور وأوان الظلام ، ربيع الرجاء وزمهرير القنوط : بين أيدينا كل شيء وليس بين أيدينا أى شيء قط ، وسبيلنا جميعاً إلى سماء عليين وسبيلنا جميعاً إلى قرار الجحيم . تلك أيام كأيامنا هذه التى يوصينا الصاخبون من ثقاتها أن نأخذها على علاتها ، وألا نذكرها إلا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات وآفات » .

هذا هو عصر الثورة الفرنسية كما وصفه الكاتب الإنجليزى « شارلز دكنز » فى بداية قصته « المدينتين » ، وليس أصدق منه تصويراً لعصر الطوائف فى تاريخ الأندلس البعيد . لأنك « قد تنقل هذا الوصف إلى أمة غير الأمة الفرنسية ، وعصر غير القرن الثامن عشر للميلاد ، وأنت لا تخرج به عن زمانه ومكانه وفحواه ، إذ هو وصف صادق لكل عصر من العصور فى تواريخ الانتقال والاضطراب » . إنه عصر « لا يوصف فى جملته إلا بمثل هذا الوصف الغامض الجلى الذى كأنما يصف لك عصرين مختلفين لا عصراً واحداً متناسق الأوضاع والأحوال ، لأنه فى الحقيقة عصران مختلفان أو عدة عصور مختلفات ، وإن اجتمعت فى نطاق واحد من الزمان »(١) .

---

(١) اقتبست هذه الفقرة الجامعة من كتاب : ابن الرومى ، حياته من شعره ، لعباس محمود العقاد ، ص ١٠ — ٢١ ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٧ — ١٩٣٨ ، وهو انه بصدد الحديث عن القرن الثالث الهجرى فى دولة الاسلام الشرقية ، لأنها خير ما يصور عن واقع الاندلس فى القرن الخامس الهجرى .

كان عصر الطوائف أوان الحصاد لكل ما بذرت أيام الخلافة المجيدة ، وعصر الحجابة الزاهرة ، من جراثيم الخير وعناصر الفلاح على السواء ، وأثمر فيها الخطأ كما أثمر التوفيق ، وبلغت الغاية فى الحالين ، وتوزعت خيراتها ، وشرورها أيضاً ، جماعات مختلفات من كل جنس ودين. لقد انهار صرح الخلافة الواحدة ، وانتثر عقد بلادها ، وتفرقت أيدى سبا . وقام على أنقاضها رؤساء طوائف العرب ، وأمراء الجماعات البربرية ، وفتيان صقالبة القصور ، وتقاسموها إمارات ، ومع التفرقة ضاعت القوة الواحدة الموجهة للسياسة الأندلسية العامة ؛ واختفى ما هو أخطر من ذلك ، وهو المثل الأندلسى الأعلى (١). وظهر اليهود على المسرح السياسى ، ومكنوا لأنفسهم فى إمارة غرناطة زمناً (٢) ، وتغيرت الأمور حول الأندلس تغيراً حاسماً ، فقد استيقظت إسبانيا النصرانية ومدت يدها إلى أوربا ، ونظم أهل المغرب أمورهم فى صحرائهم وأقاموا لأنفسهم دولة ، وبين نارى النصارى فى الشمال والبربر فى الجنوب وقف ملوك الطوائف ، وقد وهن أمرهم ، وأضعفهم الترف والبذخ ، لا يكاد سلطان أحد منهم يتخطى حدود بلده ، وكانت دويلاتهم أشبه بجمهوريات إيطالية فى ثياب شرقية ، وسادت العصر كله روح من البذخ المسرف ، والإجرام السافر الذى لا يتورع عن شىء من المطامع والنزوات إلى الخناجر والسموم (٣) .

وبين صخب الحياة اللاهية ، وعربدة اللحظات الماجنة ، وغيبة الوعى بالغد والمصير ، استيقظ الأندلس كله على كبرى القوارع ، وكانت :

---

(١) غرسية غومث : الشعر الأندلسى ، ص ٣١ — ٣٢ من الأصل الاسبانى ، وص ٤٢ — ٤٤ من الترجمة العربية .

(٢) انظر الفصل الخاص بالقصيدة التى غيرت تورة فى هذا الكتاب .

(٣) غرسية غومث : الشعر الاندلسى ، ص ٣٢ ، الترجمة العربية ص ٤٠ .

● سقوط طليطلة :

قُدِّر لطليطلة أن تكون أولى المدن الكبرى الذاهبة، ورغم أنها لم تسقط فى حرب ، ولم يخسرها المسلمون فى قتال ، وإنما ذهبت نتيجة خدعة ماكرة من **ألفونسو السادس** ، واستسلام مهين من **القادر يحيى بن ذى النون** ، كانت الضربة القاصمة التى شالت بعدها كفة المسلمين ورجح جانب الكاثوليك ، وكانت محنة حقيقية لما تمثله طليطلة من ثقل فى حياة الأندلس السياسية والحربية والشعورية ، كانت عاصمة أسبانيا على أيام القوط ، وأحيط فتحها على يد **طارق بن زياد** بأساطير جميلة ، ذات خيال ممتع ، عما لقى فيها المسلمون من كنوز وثروات وسلاح ، ولم تفقد أهميتها حتى بعد أن أصبحت العاصمة قرطبة ، فتميزت كقاعدة حربية ذات ثقل ملحوظ فى شمال الدولة الإسلامية ، وزادها قدراً ما تتمتع به من موقع استراتيجى ممتاز ، يتيح لها منعة طبيعية فى وجه المغير ، كانت على قمة جبل مرتفع ، يطوقها نهر تاجه (تاخـــو Tajo فى الإسبانية الحديثة) وتصلها بما وراءها قنطرة محصنة، وعرفت إلى جانب ذلك بإيمانها الصلب متمثلا فى ثورات لا تنتهى ، وبلغت ـكغيرها ـ قدراً عالياً من الرقى والتحضر ، وأخذت بحظ وافر من الثقافة ، وإذا كان حظها من الأدب متواضعاً فقد فاقت غيرها فى التأليف العلمى ، ففيها عاش **الزرقالى** (أبو ابراهيم بن يحيى النقاش ٤٥٢ـ٤٧٢هـ = ١٠٦١ـ١٠٨٠م)، أبرع من أنجب الأندلس من علماء الفلك ، **وابن وافد** (أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير ٣٨٨ـ٤٦٦هـ = ٩٩٨ـ١٠٧٤) أوسع أهل زمانه علماً بالطب ، وعرفت مؤرخين نابهين **كصاعد الطليطلى** (٤٢٠ـ٤٦٢هـ = ١٠٢٩ـ ١٠٦٩م) صاحب كتاب « **طبقات الأمم** » ، ونحويين مجيدين **كأبى الوليد الوقشى** ، وعدداً من أصحاب الوثائق والعقود المتمكنين **كابن مغيث** (أبو جعفر أحمد بن محمد ت ٤٩١ـ١٠٦٩م) . وغيرهم .

وبقدر ماكانت تمثل كان تشاؤم المسلمين من سقوطها ، ولم تحفظ لنا كتب الأدب من رد الفعل المباشر عند الشعراء إلا أبياتا ثلاثة قالها الزاهد الفقيه أبو محمد عبد الله بن العسال (ت ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م) . حين تركها ورحل إلى غرناطة :

يا أهلَ أندلسٍ حُثوا مطيكمُ ... فما المقــامُ بها إلا من الغلطِ
الثوبُ ينسل من أطــرافه وأرى ... ثوبَ الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عــدو لا يفارقنــا ... كيف الحياة مع الحياتِ فى سفط

وهو صوتٌ غريبٌ أجش فى الأسماع ، لأنه بدل أن يبكى ما حل بوطنه يحذر الأندلسيين من الإقامة فيه ، ويدعوهم إلى الرحيل ، ولو فهمنا الأبيات على ظاهرها لقلنا إنها تمثل موقفاً إنهزامياً ، ولكن هذا اللون من التعبير السلبى يستهدف فى الحقيقة المبالغة فى النذ والتذكير .

يمكن تعليل قلة الشعر المروى فى سقوط طليطلة بدءاً بأن الحرب كانت لا تزال سجالا ، وأن المسلمين ثأروا لهزيمتهم فى معركة طليطلة ، قبل مضى عام واحد بانتصار حاسم ورائع فى معركة الزلاقة عام ١٠٨٦ م ، وأن الأمل فى استرداد المدينة ظل قائما ، كما أن الشروط التى تم تسليم المدينة فى ظلها كانت — فى مثل ظروفها — مشرفة ، فقد آلى ألفونسو السادس على نفسه أن يحافظ على حياة مسلمى طليطلة ، وحياة نسائهم وأطفالهم ، وألا يلحق ضرراً بأملاكهم ، وتعهد بأن يسمح لمن يريد أن يخرج بالخروج ، ومن يريد أن يبقى بالبقاء ، ومن يبقى لا يطلب منه أكثر من دفع ضريبة الرأس ، ومن يهاجر يمكنه أن يعود فى الحال ، ويسترد أملاكه مهما عظمت قيمتها دون معارضة ، كما أجيب أهل طليطلة إلى الضمانات التى طلبوها فيما يتصل بحرية ممارسة شعائرهم الدينية والحفاظ على جامعهم الكبير .

لكن الكاثوليك ما لبثوا أن تنكروا لعهودهم ، فنقضوا المعاهدة لأسابيع من من دخولهم طليطلة (٦ من مايو ١٠٨٥ م) ، فحولوا المسجد الجامع إلى كنيسة فى يوليو من العام نفسه ، وحيل بين المهاجرين وبين العودة إلى ديارهم وضيِّقَ على المسلمين فى أداء شعائرهم أولا ، ثم أكرهوا على التكثلك فيما بعد حين أزفت شمس الاسلام الأندلسى على المغيب .

كان للأحداث التى وقعت بعد سقوط المدينة صدى أضخم من الأحداث التى صاحبت السقوط ، بين سكان المدينة أنفسهم أو بين بقية مواطنيهم فى حواضر الأندلس ، وعلى نحو خاص ما اتصل منها بالدين والعقيدة ، وكان لتحويل جامع طليطلة — وهو الثانى بعد جامع قرطبة سعة وضخامة وأبهة وعمارا بالعلم والدرس — رنة أسى حزينة ، ويحكى المقرى أن الأستاذ الشيخ المغامى كان آخر مسلم وطئت قدمه الجامع ، لقد ذهب ليتزود منه ، « صار إليه وصلى فيه ، وأمر مريداً له بالقراءة ، ووافاه الفرنج هناك ، وتكاثروا عليه لتغيير القبلة ، وكلما قالوا له : عَجِّل ، أشار هو إلى تلميذه بأن أكمل القراءة ، ثم قام ماتهيب فصلى به ، ورفع رأسه وبكى الجامع بكاء شديداً » (١) .

ما حدث فى طليطلة نجد صداه واضحاً فى قصيدة وحيدة طويلة تبلغ اثنين وسبعين بيتاً ، حفظها لنا المقرى كاملة ولم ينسبها إلى قائل (٢) ، ويبدؤها الشاعر متسائلاً فى عجب : هل فى الأندلس من يقر هادئاً وقد ضاعت طليطلة ، فهُدَّ بضياعها ركن الدين الحصين ، وتوالت بعدها النكبات والمصائب ، وأحس المؤمنون بالفزع حين علموا أن الغلبة كانت فى جانب ألفونسو السادس :

لِثُكْلِكِ كيف تبتسم الثغورُ سرورا بعد ما سُبِيَتْ ثغورُ

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ٤٤٧/٤ طبعة احسان عباس .
(٢) المرجع السابق ، ٤٨٣/٤ وما بعدها .

أما وأبى مصاب هُدَّ منـه ثبيرُ الدين ، فاتصل الثبورُ
لقد قُصِمتْ ظهورٌ حين قالوا أمـيرُ الكافرين له ظهور

ويمضى فى تساؤله : أليس بالمدينة شهم يقاوم الاحتلال ويحررها من العبودية ؟ لقد خضع الذين تعودوا النصرة ، واستكان من كان فى طبعهم النفور ، وهان القوم على أنفسهم ، وتسامحوا فى حرماتهم :

أليس بها أبىُّ النفس شهـمٌ يديرُ على الدوائر إذ تـدورُ
لقد خضعت رقابٌ كنَّ غُلبا وزال عتوُّها ومضى النفـور
وهان على عزيز القوم ذل وسامح فى الحريم فـتى غيورُ

ويخلص من هذه المقدمة العامة ليعرض ماجرى فى طليطلة نفسها ، لقد انتصر الكاثوليك واستولوا على المدينة ، ذات الحصون العالية ، تفوق ضخامة ومنعة إيوان كسرى والخورنق والسدير . كانت معقل الإسلام ومنار علمه ، فخبا ضوؤها وعادت دار كفر ، وأخرج سكانها المسلمون ، وحولت مساجدها إلى كنائس ، وعبثوا بحرائرها :

طليطلةٌ أبـاح الـكفرُ منهـا حماها ، إن ذا نبـأ كبيرُ
فليس مثالهـا إيوانُ كسرى ولا منها الخوَرْنَقُ والسديرُ
محصَّنة محسَّنةٌ بعيـدٌ تناوُلها ، ومطلبُها عسير
ألمْ تكُ معقلاً للدين صعْباً فذلَّله كمـا شـاء القديـر
وأخرج أهلَها منها جميعا فصاروا حيث شاء بهم مصيرُ
وكانت دارَ إيمـان وعلـم معالمـها التى طمست تنيـر
فعادتْ دارَ كُفرٍ مصطفاةٍ قد اضطربتْ بأهليها الأمـور
مساجدُها كنائسُ ، أى قلبٍ على هذا يقر ولا يطـير ؟

ويرد الأحداث إلى تقلب الدهر ، يذكر ذلك فى بيت واحد ، ثم يمضى ، لا يقف عند الأمر ، ولا يجعل منه قضية يدور حولها ، وإنما يتجاوزها ليرد

على الذين جعلوا الهزيمة عقاباً من الله على معاصٍ ارتكبها أهل طليطلة ، وإنكاراً منه لواقع في حياتهم لا ترتضيه الشريعة. وحجته في الرد أن غيرهم أسوأ منهم ، وأشد فسقاً وفجوراً . فإذا ارتضينا هذا سبباً فعلينا أن نتوقع نفس المصير ،وفي قولته هذه يستهدف أمرين فيما أرى : الدفاع عن قوم سقطوا في محنة الاحتلال ، فهم في حاجة إلى شيء آخر غير التقريع والذم، وتذكير الغافلين في بقية مدن الأندلس بما يمكن أن ينتهى إليه حالهم ، إذا واصلوا سيرتهم العابثة، وواصلوا مظالمهم وعصيانهم سراً وعلانية :

نُذورٌ كان للأيام فيهم بمَهلكهم فقد وفت النذورُ
فإن قُلنا العقوبة أدركتْهم وجاءهُمُ من الله النكير
فإنّا مثلهم وأشدُّ منهم نجورُ وكيف يسلم من يجور
أنأمنُ أنْ يحل بنا انتقامٌ وفينا الفسقُ أجمع والفجور
وأكلٌ للحرامِ ولا اضطرار إليه فيسهُلَ الأمرُ العسير
بزوال السترُ عن قومٍ إذا ما على العصيانِ أرخيت الستور

وينتقل داعيا إلى سل السيوف لنصرة الدين والثأر للقتلى ، والموت دون حياة عزيزة خير من الحياة في ظل عيش ذليل ، ويضيق بالصابرين على الثأر، ويلوم القاعدين دونه :

خذوا ثأر الديانة وانصروها فقد حامت على القتلى النسورُ
ولا تهنوا وسُلّوا كل عضْبٍ تهابُ مضاربا منه النحور
وموتوا كلكم فالموتُ أولى بكم من أن تُجاروا أو تجُوروا
أصبراً بعد سَبيٍ وامتحان يُلام عليهما القلبُ الصبور

ويصور قعود الناس عن الحرب، ويتهمهم بالجبن ، وأنهم أبقار تخور، ترعدهم أخبار الهزائم وما يجرى لمواطنيهم في المدن التي سقطت في قبضة الكاثوليك ، ويتمنى لوكانوا أسودا تزأر وتخيف وترعب :

نخور إذا دُهينا بالرزايا وليس بمعجبٍ بقَرٌ يخورُ
ونجبنُ ليس نزأرُ . لو شجعنا ولم نجبن لكان لنا زئير
لقد ساءت بنا الأخبارُ حتى أمات المخبرين بها الخبير

ويعرض لمحاولات الإغراء المادية من جانب العدو وكيف استجاب لها من المسلمين الغنى والفقير ، فبقى بعضهم فى أرض الكفر خزيان ينمى ثروته، وجرى آخرون مع الخزى إلى نهايته فارتدوا عن دينهم ، وبلغ الحزن غايته حين آثر الجميع البقاء ، وحجتهم : إلى أين نذهب ؟ وكيف نترك بيوتنا وأموالنا وليس لنا وراء البحر دور ولا أموال . ليست لنا هناك ضياع ننعم بوارف أشجارها وطيب ثمارها ، ولا طبيعة فياضة بجمالها من ظل وماء واعتدال هواء :

تجاذبنا الأعادى باصطناعٍ فينجذبُ المخوّلُ والفقيرُ
فباق فى الديانة تحت خزْيٍ تثبّطهُ الشوَيْهَةُ والبعير
وآخرُ مارقٌ هانتْ عليهِ مصائبُ دينهِ فلهُ السعير
كفَى حزْنًا بأن الناسَ قالوا : إلى أين التحولُ والمسير ؟
أنتركُ دُورَنا ونفرّ عنها وليس لنا وراء البَحْرِ دُور
ولا ثَمَّ الضياعُ تروقُ حسنا نباكرُها فيعجبنا البكور
وظلٌّ وارفٌ وخريرُ ماء فلا قرٌّ هناك ولا حَرور
ويؤكلُ من فواكهها طريٌّ ويُشرب من جداولها نمير

ويورد الشاعر المجهول حجج أولئك القوم ، الذين آثروا عيش التخاذل ، وارتضوا حياة الدعة فى ظل الاحتلال ، يؤدون الجزية للإسبان كل شهر ، ويدفعون عشر محصولهم كل صيف وهم صاغرون . ويعاود الحديث عن تلاشى اليقين ، وذهاب الدين ، ورضا المسلمين بالرق ، ويبكى ضياع دولة الإسلام ، ويندب الضائعين من أهله فى بلاد الشرك ، ويحث المسلمين على القتال لأن الحزن لا يفيد ، والبكاء لا ينقذ ، ويندب رفاقاً حيارى خلّفهم

وراءه فى طليطلة ، لا استقروا على البقاء ، ولا أقدموا على الهجرة ، وارتضوا أن يدفعوا الجزية ، وأن يؤدوا الضرائب ، عشر دخلهم كل صيف ، مادام الذين استولوا على المدينة يحمونها ، وأصبح المسلمون مواليهم ، ولا يقنع بالندب والنوح وإنما يدعو إلى نبذ السلم ، والدعوة إلى الحرب فهى وحدها التى تغسل عار الهزيمة ، وتجبر العظم الكسير :

يُؤَدّى مَغرمٌ فى كلّ شهرٍ ... ويُؤخذُ كل صائفةٍ عُشُورُ
فهم أحمى لحوزتنا وأولى ... بنا ، وهم الموالى والعشير
لقد ذهب اليقينُ فلا يقينٌ ... وغرّ القوم بالله الغرورُ
فلا دينٌ ولا دنيا ولكنْ ... غرورٌ بالمعيشة ما غرور
رضوا بالرقّ يالله ماذا ... رآهُ وما أشار به مشيرُ
مضى الإسلامُ فابك دماً عليه ... فما يغنى الجوى الدمعُ الغزيرُ
ونُح واندبْ رفاقاً فى فلاةٍ ... حيارى لا تحطُّ ولا تسير
ولا تجنح إلى سلم وحاربْ ... عسى أنْ يُجبرَ العظم الكسير

ويقارن بين موقف العدو وموقف المسلمين ، وكان نصيب أولئك الرشد ، وحظ هؤلاء عمى البصيرة ، وكيف يلقون منهم واحدا ويفرون عنه جمعا ، ويدعو المسلمين إلى الثبات عند اللقاء ، والصبر عند الشدة ، لأن كثرة العدد وحدها لا تغنى شيئا . ويختم قصيدته يبكى دولة الإسلام الضائعة فى بطاح الأندلس ، ويندب أهله المضيعين فى بلاد الشرك ، ويتمنى لو وجدت الجموع الحائرة قائدا مقتدرا ، ينصح الرأى ، ويعطى المثل ، ويحسن الطعن ، ويتقدم عند اللقاء ، فإنه لكبير أن يكون سكان الأندلس إما قتيل أو أسير :

أنعمى عن مراشدنا جميعا ... وما إنْ منهمُ إلاّ بصيرُ
ونلقى واحداً ويفرُّ جمعٌ ... كما عن قانصٍ فرّت حميرُ
ولو أنّا ثبتنا كان خيراً ... ولكنْ مالنا كرمٌ وخيرُ

إذا مالم يكن صبرٌ جميلٌ ... فليس بنافعٍ عــددٌ كثير
ألا رجلٌ له رأىٌ أصيلٌ ... به مما نحاذر نستجــــير
بكرٌ إذا السيـوفُ تناولتْهُ ... وأين بنا إذا ولّتْ كرور
ويطعن بالقنا الخطّار حتى ... يقول الرمح ماهـذا الخطير
عظيمٌ أن يكون الناس طرا ... بأندلسٍ قتيلٌ أو أســير

أكثر الشاعر من التنديد والتقريع فى قصيدته ، ولكنه لا ينتهى بها إلى تثبيط العزائم ، أو إشاعة اليأس ، وإنما يهدف من ورائه إلى استنهاض الهمم وإثارة الحمية ، ودفع الناس إلى التماسك والوقوف فى وجه العدو ، ويختمها وقد فتح لهم طاقة من الرجاء ، ويتفاءل بالنصر فى أحلك ساعات المحنة ، مستمداً ذلك من إيمانه بالله ، وثقته فى نفسه وقومه رغم تطامن البلايا :

ونرجو أن يتيح الله نصراً ... عليهـم ، إنـه نعم النصير

●

لم يورد أىّ من المصادر الأندلسية التى بين أيدينا القصيدة أو أبياتاً منها . وانفرد **المقرى** بإيرادها كاملة ، على مايبدو من أبياتها ، فى كتابه **نفح الطيب**، ولم يصرح كعادته كثيراً باسم المصدر الذى نقل عنه ، وقد تأملت الأبيات طويلا ، وبدا لى أن قائلها من طليطلة قطعا ، واحد أكيدا ، فهى متساوية النغم والبناء والمشاعر ، يؤكد على بعض الأفكار بتكرارها أحياناً ، لكن لا شئ فيها يمكن أن ينصرف إلى مدينة أخرى ، أو أضيف لها فيما بعد .

الشاعر من طليطلة إذن ، شهد وقائع الأحداث الأولى على الأقل ، وفارقها قبل التسليم النهائى فيما أرجح ، لأنه يصور لنا حالتها حينئذ تصوير خبير ، يتحدث عن الأخبار الواردة على أهل طليطلة ، وعن يأسهم ، وطول انتظارهم للنجدات التى يأملونها ، وعن سقوطها أخيراً . ويعتذر لأخوان له فيها بأنه إذا كان قد هاجر فهو حاضر معهم بأحزانه وأشجانه :

لئن غبنا عن الإخوانِ إنّا   بــأحزانٍ وأشجــانٍ حضورُ

ويلمح إلى ما كان لطليطلة من دور ثقافى فيجئ تعبيره دقيقاً محدّداً ، لا يقول إنها كانت منارة الأدب ، ولا مهبط الشعر ، ولم يكن لها هذا الدوْر ، وإنما يصفها بأنها كانت منارة العلم ، وحصن الدين ، ومهبط الإيمان ، وهى كذلك واقعاً. ويتحدث عن مناعتها الجغرافية ، ومعها كان الظن بأنها لا تسقط فى يد غازٍ أبدا ، وأن العدو أرغم جانباً من أهلها على الهجرة ، وأن مساجدها أصبحت كنائس ، وأصاب كبد الحقيقة حين ألمح إلى محاولات العدو فى اجتذاب سكان طليطلة إليه بعد أن استولى عليها ، مما أوجزه **المقرى** فى جملة مبينة : « وبسط الكافر العدل على أهل المدينة، وحبّب التنصّر إلى عامة طغامها ، فوجد المسلمون من ذلك مالا يطاق حمله » . ورغم تقريعه الشديد لأهل طليطلة عدّ ماوقع نَذْرا من الأيام ، ولم يرجع به إلى غيبية محزنة ، تصاحب دائماً فترات السقوط الفكرى ، والانحطاط العقلى ، وتجعل العصيان والفسوق وراء كل هزيمة ، دون تحليل النتائج وردّها إلى أسبابها العلمية المباشرة ، بل ودافع عنهم ، وذكّر من جعل المعاصى سبباً ، وأن السقوط عقوبة ، بأن غير هم يفعل مثلهم ، وأشد منهم ، وإذن فعليهم أن يحذروا لأن الدائرة سوف تدور عليهم إذا لم يفيقوا وينتبهوا . وهو لا يضغط على هذا المعنى كثيراً كما نجد فى القصائد الأخرى التى تجئُ فيما بعد .

الشاعر أصيل فى أفكاره واتجاهه ، لأن قصيدته أوّل ماقيل فى بابها ، وليس عالة فيها على أحدٍ سبقه ، ولا تنسحب تجربتها على أحداث أخرى مماسه أومشابهة ، ونلمح فيها على استحياء تصويرا عابراً لداخله ، وتطل مشاعره الشخصية من بيت لا نجد له شبيهاً عند رفاقه من بعد ، فقد أهمه الأمر وكان له معه ليل كليل امرئُ القيس أو النابغة من قبل :

يطول علىّ ليــلى ، ربّ خطبٍ   يطول لهوله الليــلُ القصيرُ

وهومتمكن من أدواته ، عروضاً ولغة ونحواً ، ليس فى قصيدته اضطراب أو ركاكة ، ولا فى إيقاعها تكلف أو إسفاف . ولكنه فيما يبدو ليس فناناً هوايته الإبداع ، ولا شاعراً صناعته القريض ، وإنما يشغل الشعر حيزاً محدوداً من اهتماماته فحسب . ، إلى جانب هموم علمية أخرى ، فصوره الشعرية قليلة ، وماورد منها جاء بسيطا ساذجاً ، وهو يعتمد على ألوان التشبيه والاستعارات المألوفة ، إلى جانب المحسنات اللفظية ، ومن بينها الجناس بخاصة . كاملاً أو ناقصاً ، ثم الطباق ، والموقف يستدعيه فنيا ، لأن المقابلة بين الفكرتين أو الموقفين تعطى التصوير الذى يهدف إليه بعدا ، والمعنى مزيدا من التأكيد.

ومع غيبة الوثائق القاطعة باسم الشاعر إثباتاً أو نفياً ، آثرت أن أعتمد على الظن الراجح فى الوصول إلى قائل هذه الأبيات ، وقلبت الأمر على وجوهه ، وتتبعت أخبار الشعراء فى طليطلة فى هذه الفترة فلم أجد من يمكن أن تنسب إليه هذه القصيدة غير **أبى الوليد هشام بن أحمد الوقشى** ، فقد عاصر هذه الأحداث ، وهو أصلا من طليطلة ، وأعطانا ابن بشكوال خطوطاً عريضة لحياته ، وملامح من اتجاهاته ، تنبىء بأنه صاحب القصيدة ، وسنأتى على ذلك فيما بعد (١) ، ويرجح بظنى أن المقرى نقل له أبياتاً أخرى قصيرة ومتعددة ، فى مناسبات مختلفة ، وسنلتقى به مرة ثانية فى بلنسية يبكيها فى قصيدة أخرى ، حين سقطت فى يد السيد القنبيطور (٢) ، وتعرضت لمحنة شبيهة تماماً بما تعرضت له طليطلة من الحصار والتجويع ، وفى هذه المرة وصلنا اسمه محرفا تماماً ، وتوصلنا إليه ، أما القصيدة نفسها فضاعت ، وصلتنا فى صورة طريفة ، لا نظير لها فى تاريخ الأدب العربى ، مكتوبه بعامية أهل الأندلس ، وفى حروف لاتينية ، ومترجمة عن ترجمة الأصل إلى اللغة القشتالية ، وسوف ندرسها تفصيلا فى فصل خاص : « مرثية بلنسية ضائعة » .

---

(١) انظر فصل : « مرثية بلنسية ضائعة » فى هذا الكتاب ، ص ٢٧٨ .

(٢) اتينا على تاريخ السيد ، وما اصاب بلنسية على يديه تفصيلا ، فى كتابنا : ملحمة السيد ، دراسة مقارنة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٩ .

● **المعتمد يرثى دولته :**

بدأت دولة العبايدة فى أشبيلية ، قبل أن ينتشر عقد الخلافة الأموية ، على يد القاضى **أبى القاسم محمد بن عباد** (ت ٤٣٣ هـ = ١٠٤٢ م) وثبتت أركانها على يد ابنه **عباد** الذى تلقب بالمعتضد (٤٠٣ — ٤٦١ هـ = ١٠١٢ — ١٠٦٩ م) ، وكان متناقض المزاج ، يجمع بين الدهاء اليقظ ، والقسوة البالغة ، والإحساس الرقيق ، والعلم الواسع ، والذوق الرفيع ، إلى ذاكرة واعية وقريحة شاعرة ، وأحاط نفسه بهالة من الشعراء جعلت همها مديحه ، وأسرف فى الإنفاق فبدأ فى هيئة خلابة من العظمة ، إلا أن ابنه المعتمد (٤٣٢ — ٤٨٨ هـ ١٠٤٠ — ١٠٩٥ م) وقد خلفه على عرش أشبيلية احتل فى دنيا الأدب والتاريخ مكانة أعظم من مكانة أبيه ، فقد فاقه فى الشعر ، وبرىء من أوزاره فى السياسة ، وكان يمثل الشعر خير تمثيل من وجوه ثلاثة : ينظمه على نحو يثير الإعجاب ، وكانت حياته نفسها شعراً حياً ، وكان راعى شعراء الأندلس أجمعين ، بل الغرب الإسلامى كله .

ظل سلطان **المعتمد** فى ازدهار زهاء عشر سنين ، لكن سقوط طليطلة وضغط النصارى على أشبيلية وبقية الحواضر الإسلامية ، جعل ملوك الطوائف — وعلى رأسهم المعتمد — يستنجدون بالمرابطين فى أفريقيا ، وعبر المرابطون إلى الأندلس ، وانتصروا على النصارى فى معركة **الزلاقة** ، لكنهم فى نهاية الأمر انقلبوا على ملوك الطوائف أنفسهم ، وأخذوا يستولون على معاقلهم واحد إثر آخر ، وسقطت أشبيلية فى أيديهم بعد كفاح مرير من **المعتمد** وأبنائه ، وقتل منهم **المأمون والراضى** ، ومن قبلهم **الظاهر** ، ومن بعدهم **عبد الجبار** ، ولما صار المعتمد فى أيدى المرابطين « جُمعَ هو وأهله ، وحملتهم الجوارى المنشئات ، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، بعد ما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم العمر ، والناس قد حشروا بضفتى الوادى ، وبكوا بدموع

كالغوادى فساروا والنوح يحديهم ، والبوح باللوعة لا يعدوهم[١] »

كان المعتمد فى حياته شاعراً أكثر منه حاكماً ، إلا أن عراقة الأصل ، ونبل المحتد ، وحمية العربى ، تجلت واضحة فى مواقفه من ضغط المسيحيين فى الشمال ، فكان أول من اقترح دعوة المرابطين لمواجهة جيوش النصارى الزاحفة ، وحين خوفه المنتفعون بالفساد فى وطنه بأنهم إذا جاءوا لن يرحلوا ، كانت قولته الشهيرة « رَعيُ الجمال خير من رْعى الخنازير » . وقاتل فى معركة الزلاقة قتالاً محموماً شجاعاً ، وسار إليها على رأس جيشه واثقاً بالنصر ينشده :

لابد من فرجٍ قـــريبِ ... يأتيك بالعجب العجيـــب
غـــزْوٌ عليك مباركٌ ... ســــيعود بالفتح القريب
للـــــه ســــعدُك إنَّهُ ... نُكْسٌ على دين الصليبِ
لا بد من يومٍ يكـــــو ... نُ لـــه أخـــا يوم القليبِ[٢]

وألقى ألفونسو السادس ملك قشتالة بثقل جيشه كله على المعتمد ، لأنه وراء هذه الحرب ، ومال عليه بكل جموعه . وأحاطوا به من كل جهة ، وحمى الوطيس ، واستحر القتل فى أصحاب ابن عباد ، وصبر المعتمد صبراً لم يعهد مثله لأحد ، وعضته الحرب ، واشتد عليه ومن معه البلاء ، وانكشف بعض أصحابه ، وفيهم ابنه عبد الله . وأثخن جراحاً ، وضُرب على رأسه ضربةً فلقت هامته ، حتى وصلت إلى صدغه . وجرحت يمنى يديه ، وطعن فى أحد جانبيه . وعقرت تحته ثلاثة أفراس ، كلما هلك واحدٌ قُدم له آخر . وهو يقاسى حياض الموت . ويضرب يميناً وشمالاً ، وتذكر ابنا صغيرا له ، كان مغرماً به ، تركه عليلا فى إشبيلية ، يكنى أبا هاشم :

---

(١) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢٣ .

(٢) يوم القليب هو معركة بدر .

أبا هاشم هشمتْنى الشـفارْ ... فلله صبرى لذاك الأوارْ
ذكرتُ شُخيصك تحت العجاج ... فلم يَثْنِنى ذكـره للضرارْ

وحين أطبقت جيوش المسلمين مجتمعة ، من مرابطين وأندلسين ، على جيش ألفونسو وأصحابه ، ونصرائه من كل بقية دول أوربا ، وصدقوا الحملة عليه ، « ولّوْا ظهورهم ، وأعطوا أعناقهم ، والسيوف تصفعهم ، والرماح تطعنهم ، وتفرق جيش ألفونسو شذر مذر ، وغطت جثث جنوده ساحة المعركة ، فما يستطيع المرء أن يتحرك خلالها إلا على الجثث خوضاً فى الدماء .

« ولما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس ، وهُنِّئ بالفتح ، وقرأتْ القرّاء ، وقام على رأسه الشعراء فأنشدوه . قال عبد الجليل بن وهبون : حضرت ذلك اليوم ، وأعددتُ قصيدة أنشدها بين يديه . فقرأ القارىء « إلا تَنْصروهُ فقد نصره الله » (١) ، فقلت : بُعْداً لى ولشعرى ، والله ما أبقت لى هذه الآية معنى أحضره وأقوم به » .

لكن ابن تاشفين لأسباب سياسية ارتآها ، وليس هنا موضع مناقشتها ، قرر أن يزيح أمراء الطوائف عن عروشهم ، وبدأ بالمعتمد لأنه أعظمهم وأقواهم ، ولقرب عاصمته من عدوة المغرب ، وسهولة الوصول إليها إبحاراً ، ودافع المعتمد وبنيه عن ملكه ، وترامى على الموت بنفسه ، غير أن ذلك لم يجده نفعاً . وخرج الناس من منازلهم ، وقد شُنَّتْ الغارة عليهم . « يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكُشفَتْ وجوه المخدرات العذارى ، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى ، ورُحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع ماله ، لم يصحب معه بُلغة زاد ، ولا بقيّة مراد » .

وأدرك المعتمد واعياً أن دولتهم انهارت ، وملكهم تلاشى ، وبدأ شاعراً يرثى ، ولا أقول يبكى ، مجداً ضائعاً ، فى أبيات شرقتْ وغرّبت ، لأنها تصوّر المثل الأعلى فى حياة العربى ، أميراً على عرش ، أو راعياً وراء قطيع : السّم

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٤٠ .

ألذ مذاقا من الخضوع ، والشرف الرفيع لا يُسلب ، لم يتخلّف عن القتال ، ولا ضنّ بنفسه عن الاستشهاد ، ولئن عاش بعده فلئن له عمراً لم ينقض ، فما سار يوماً إلى معركة وأمّل أن يعود منها حياً ، تلك هي أخلاقه ، وهي أخلاق أهله من قبل :

لمّا تماسكتِ الدموعْ وتنبّه القلبُ الصديعْ
وتناكرتْ هِمَمى لما يستامُها الخطبُ الفظيعْ
قالوا الخضوعَ سياسةٌ فليبْدُ منك لهم خضوع
وألذُّ من طعمِ الخضو عِ على فمى السمُّ النقيع
إنْ تَسْتلبْ عنى الدُنا ملكى وتُسْلمُنى الجموع
فالقلبُ بين ضلوعه لم تُسْلِم القلبَ الضلوع
لم أسْتلبْ شرفَ الطبا عِ أيُسلبُ الشرفُ الرفيع
قد رمتُ يومَ نزالهم أنْ لا تحصّننى الدروع
وبرزتُ ليس سوى القميـ ص على الحشا شىءٌ دفوع
وبذلتُ نفسى كىْ تسيـ لَ إذا يسيلُ بها النجيع
أجلى تأخّرَ لم يكنْ بهواى ذُلّى والخضوع
ماسرتُ قط إلى القتا ل وكان من أملى الرجوع
شِيَمُ الأُلى أنا منهمُ والأصل تتبعه الفروع

وحين انفضت المعركة ، وخسر كل شىء إلا الشرف ، تطلع فإذا ابنه سراج الدولة أبو عمرو قتيل ابن عكاشة فى قرطبة . وأبو خالد يزيد المقلب بالراضى قتله قرور اللمتونى غدرا برندة ، وأبو نصر الفتح المقلب بالمأمون قتيل فى قرطبة أيضاً ، وفى طريقهم إلى مقرهم النهائى أسرى ، لم تتوقف أمهم ، اعتماد الرميكية ، ولا أخواتهم بكاء عليهم ، وصور لنا حاله تكبله القيود وذل الأسر ، وحال زوجه يغلبها الحزن ، وتزجرها التقوى ، وتذللها الذكرى ، وتفزع للبكاء ، وتصبر أحياناً ، وهى مضيعة بين تلاطم هذه العواطف :

يقولون صبراً لاسبيل إلى الصبر — سأبكي وأبكي ماتطاول من عمري
هوى الكوكبان : الفتح ثم شقيقه — يزيدُ ، فهل بعدالكواكب من صبر
ترى زهرَها في مأتم كل ليلة — تخمّشن لهفاً وسْطه صفحة البدر
ينُحن على نجمين أُثكلْن ذا وذا — وأصبرُ ماللقلب في الصبر من عذر
أفتحُ لقد فتّحتَ لي بابَ رحمة — كما بيزيدَ اللهُ قد زاد في أجري
[illegible]يّما والسنُّ بعْدُ صغيرةٌ — ولم تلبث الأيّامُ ان صغّرت قدْري
توليتما حين انتهتْ بكما العُلا — إلى غاية ، كلٌّ إلى غاية يجري
فلو عُدتما لاخترتما العوْدَ في الثرى — إذا أنتما أبصرتماني في الأسر
يُعيد على سمعي الحديدُ نشيدَه — ثقيلاً فتبكي العين بالحسّ والنقْر
معي الأخواتُ الهالكاتُ عليكما — وأمّكُما الثكْلى المضرّمةُ الصدر
فتبكي بدمعٍ ليس للقطر مثلهُ — وتزجرُها التقوى فتصغى إلى الزجر
أبا خالد أورثتني الحزن خالداً — أبا النّصر مذ ودُعتَ ودّعني نصْري
وقبلكُما قد أوْدَعَ القلْبَ حسرةً — تجدّدُ طولَ الدهر ، ثُكْلُ أبي عمرو

ودخل عليه ابنه أبوهاشم ، والأب «يرسف في قيوده ، وينقلب في حديده ، فخنقت الطفلَ العَبْرةُ ، وكان أحب أبناء المعتمد إليه ،وأحظاهم على صغَره لديه . فناجى القيد . جعله شخصاً يخاطبه ويعتب عليه قسوته . لقد شَرب منه الدم ، وأكل اللحم ، ويودّ أن يهشم العظم . لا يبالى بطفل جاء يسترحمه ، ولا بأخيات له جرعهن السم والعلقم . من يعى تكاد دموع الحزن تذهب ببصره والصغير لا يفهم يلوذ بالرضاع :

قيدي ! أما تعلمني مُسْلمـا — أبَيْتَ أنْ تشفقَ أو ترحمًا
دمي شرابٌ لك واللحمُ قد — أكلته لاتهشمِ الأعظُما
ارحمْ طُفَيلاً طائشاً لُبُّه — لم يخش أنْ يأتيك مُسْترحما
وارحم أخيّاتٍ له مثلـه — جرّعتهن السمَّ والعلْقما
منهن مَن يفهم شيئا فقـد — خفْن عليه للبكاء العمى

والغر لا يفهمُ شيئاً فمـــا يفتحُ إلا للرضاع فمـــا

وهى صورة بالغة الحزن ، جعل منها التشخيص شيئاً نحســه ونشعر به ، ويتسرب إلى أعماقنا خفياً ، فيجسد التجربة أمامنا حية، ويستل الدموع من أعيننا غزيرة ، كأننا نرى المشهد أمامنا .

وقد أورثته قسوة المحنة ، وهْول الاعتقال ، وفداحة الألام تطوّق بنيه بعد السعد ، ويعانون المهانة بعد العز ، زهداً جليلاً ، وتأسياً نبيلاً :

أرى الدنيا الدنيّةَ لاتواتى فأجملْ فى التصرُّف والطِّلاب
ولا يغرُرْكَ منها حُسْنُ بُرْدٍ له علَمَانِ من ذَهَبِ الذَّهابِ
فأولُها رجاءٌ من ســرابٍ وآخرُها رداءٌ من تراب

جاءت قصائد المعتمد فى رثاء دولته ، وبكاء واقعه، كثيرة وفريدة ، ولم يحدث قبله أن فاضت ينابيع الشعر فى أعماق أمير فصور لنا مأساته وأحزانه وآلامه وتأسيه ، وصاغ التجارب موحية مثيرة من واقعه ومآسيه ، كما صنع المعتمد، فى نبرة صادقة ، ومعاناة حقيقية ، وإيقاع حزين ، ولكنه فى كل الحالات ينبض نبلاً ، وينضح بكبرياء عجيب .

« لم يكن المعتمد حاكماً عظيماً بحال ، فقد تولى مقاليد شعب أفسد الترف طبعه ، فلم يصرف شيئاً من العناية إلى أمور رعيته ، وترامى على ملذات نفسه ، ومن ثم كان عبء الحكم عليه ثقيلاً ، كان بطبعه ميالاً إلى الراحة ، تشغله تلك الأشياء الخارجية التى تشغل الفنانين وتتألف منها مسراتهم وشقاواتهم ، فكان ذلك مما حال بينه وبين القيام بأعباء الحكم على النحو المطلوب. لكن أحداً من الناس لم تنطو نفسه على قدر من الحساسية والفيض الشاعرى الدافق كالذى ضمته نفس المعتمد، وأتفه الأشياء فى حياته وكل متعه وأحزانه ، كانت تأخذ على الفور شكلا شعرياً ، ويمكن كتابة تاريخ حياته ، أو على الأقل حياته الشعورية، اعتماداً على شعره وحده ، على بوحات قلبه، إنها طافحة بالحزن

والابتهاج الذى يأتى و يذهب كل يوم مع إشراقة الشمس أو تلبد الغيوم . ثم إن القدر أراد له أن يكون آخر أمير أندلسى الأصل يحمل فى جلال علم ثقافة فكرية وقومية قُدِّرَ لها أن تنطوى ويذهب أمرها تحت ظل المرابطين الذين فتحوا البلاد ، لقد أحاط به عطف خاص لأنه كان أصغر وآخر فرد من أفراد تلك الأسرة الكثيرة العدد ، أسرة الأمراء الشعراء الذين حكموا الأندلس .لقد أسف عليه الناس أكثر مما أسفوا على أى شخص آخر دون استثناء ، تماماً كما يأسف الإنسان على آخر وردة فى الموسم ، وآخر يوم جميل فى الخريف ، وآخر شعاع من أشعة الشمس الغاربة » .(١)

● ابن اللبانة يبكى دولة العبابدة :

هذا الهبوط من السمو إلى الحضيض ، من سدة الملك إلى وهدة السجن ، أثار كوامن الشعر فى نفس شاعر المعتمد ، **أبو بكر محمد بن عيسى المشهور بابن اللبانة** (ت ٥٠٧ هـ — ١١١٣ م) (٢) فبكى دولة العبابدة فى شعر صادق طافح بالأسى ، عدّد فيه مآثرهم وما صاروا إليه ، فى عبارة رقيقة ، وتصوير دقيق ، خال من المبالغة والتهويل :

تبكى السماءُ بدمع رائحٍ غـــادِ ... على البهاليلِ من أبناءِ عبَّادِ
على الجبالِ التى هُدَّتْ قواعدها ... وكانت الأرضُ منهم ذاتَ أوتادِ
والرابياتُ عليها اليانعـــاتُ ذوتْ ... أنوارُها فغدتْ فى خفْضِ أوهادِ
عِرّيسةٌ دخلتْها النائبـــاتُ على ... أساودٍ لهمُ فيها وآســــــادِ

Dozy : Histoire de Musulmans d' Espagne, Vol. II, p. 422, ,Trad. espagnole.

(١) ابن اللبانة ، نسبة الى امه وكانت تبيع اللبن ، ويقال له الدانى نسبة الى بلـده دانية Denia ، مدينة اندلسية على شاطىء البحر الابيض ، لترجمة حياته انظر :
● ابن سعيد المغربى ، المغرب ، ج ٢ ص ٤٠٩ وما بعدها ، تحقيق شوقى ضيف .
● المراكشى ، المعجب ص ١٤٧ وما بعدها ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ط. الاولى .
● ابن خاقان ، ، قلائد العقيان ص ١٥١ .

وكعبةٌ كانت الآمـالُ تعمرها ... فاليومُ لاعاكفٌ فيها ولا بـاد
ياضيفُ أقفرَ بيتُ المكرماتِ فخذْ ... فى ضمِّ رحلك واجمعْ فضلة الزاد
ويامؤمِّلَ واديهم ليسكنــهُ ... خفَّ القطين وجفَّ الزرع بالوادى
وأنتَ يافارسَ الخيلِ التى جعلتْ ... تختالُ فى عُدَدٍ منها وأعداد
ألْقِ السلاح، وخلِّ المشرفىَّ فقد ... أصبحتَ فى لهواتِ الضيغم العادى
لما دنا الوقتُ لم تخلف له عدَةٌ ... وكلُّ شىء لمقياتٍ وميعـاد

ثم يلتمس العذر لخلعهم ، فقد خلع بنو العباس من قبل ، وكانوا أعز سلطاناً ، وأعظم ملكاً ، فأقفرت منهم بغداد ، كما أقفرت من هؤلاء إشبيلية :

إنْ يُخلعوا فبنو العباس قد خُلعوا ... وقد خلتْ قبل حمصٍ أرضُ بغداد

لكنه لا يطيل الوقوف بهذه المقارنة، ولا يتجاوزها إلى غيرها ، وإنما يخلص إلى موضوع القصيدة نفسه ، فيصور مشهد ركوب بنى عباد السفن فى طريقهم إلى المنفى ، لقد سيقوا إليها منظوماً بعضهم إلى بعض بالحبال ، وضمتهم السفن فى جوفها كما تضم القبور أمواتها . كل الأحداث يمكن أن تنسى إلا ذلك اليوم ! ، ولقد رأى الناسُ وهم على ضفتى نهر الوادى الكبير نساء المعتمد ، هن اللؤلؤ جمالا ورونقاً وبياضاً ، يشربن من نفس الكأس ، وقد سفرن من هول الفاجعة ، ومزقن وجوههن بأظافرهن من شدة الحزن :

حَمَوْا حريمَهم حتى إذا غُلبوا ... سيقوا على نسقٍ فى حبل مقتاد
نسيتُ إلا غداةَ النهـر كونَهمُ ... فى المنشـآتِ كأموات بألحاد
والناسُ قد ملأوا العبرين ،واعتبروا ... من لؤلؤ طافياتٍ فوق أزباد
حُطَّ القناعُ ، فلم تُستر مُخدَّرةٌ ... ومزِّقتْ أوجُهٌ تمزيق أبراد

ثم يصف توديع الناس لهم على نحو من الصدق والدقة يخيل إلينا معهما أننا نرى الناس يتزاحمون على ضفتى الوادى الكبير ليروا السفنَ تبتعد عن الشاطىء بأصحابها وسط فيض هتون من العبرات :

- .ان الوداعُ فضجّتْ كلُّ صارخةٍ وصارخٍ من مفداةٍ ومن فـــاد
سارتْ سفائنهمْ والنوْحُ يصحبها كأنّها إبلٌ يحدو بها الحادى
كم سال فى الماءِ من دمعٍ وكم حملتْ تلك القطائعُ من قطعاتِ أكباد

كان ابن اللبانة أصدق شاعر، رثى دولة فى الأندلس، ولم يتوقف بكاؤه لها بزوالها وفقدان الأمل فى عودتها، وحاول أن يستخرج من مأساتها العظات والعبر، يوقظ بها نائماً أو يذكر غافلا، وألف فى ذلك قاصداً كتابه« نظم السلوك فى مواعظ الملوك»، وبقى حياته يتردد على أغمات حيث المعتمد أسير، يمدحه ويواسيه، ويبكى أيامه البوالى. وقال عن روحاته تلك، إنها « وفادة وفاء لا وفادة اجتداء»، وأشعاره فى الدولة العبادية كثيرة، وكلها بمنزلة عالية وإذا كان المجال لا يتسع لأن نأتى عليها جميعها، فإن نفسى لا تطاوعنى أن أمضى دون أن آتى على شيء من قصيدة مطولة منها، وقالها بعد أن أنفذ القدر سهامه، وانتهى كل شيء إلى غايته، فجاءت أقل صريخاً، وأهدأ نفساً، وأعمق تأملا، وأحفل بالحكمة والرضى، فكل شي مرهون بأوانه، والدهر حول قلب، ونحن بيده أحجار من الشطرنج يحركنا كيف شاء، والعاقل من ينفض يديه من الدنيا بعد أن رأى المعتمد فى سماء عزه، ثم أتت عليه فهو فى حمأة السجن والأسر. ويجمل ماحدث لإشبيلية بعده فى بيت واحد من الشعر، انطوى على مبالغة مقبولة: الأرض بعدهم أقفرت والناس قد ماتوا:

لكلِّ شيءٍ من الأرض ميقاتُ وللمنى فى منايا هن غاياتُ
والدهرُ فى صفة الحرباء منغمسٌ ألوانُ حالاته فيها استحالات
ونحن من لُعَبِ الشطرنج فى يده وطالما قُمرتْ بالبيدقِ الشـــاهُ
انفض يديك من الدنيا وزينتها فالأرضُ قد اقفرتْ والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الأرضىِّ قد كتمتْ سريرةَ العالم العُلْوى أغمـــات

وفى عام٤٨٨هـ = ١٠٦٥م، تُوفى المعتمد بأغمات ، ووورى التراب هناك، ونودى فى الدعاء للصلاة على جنازته : « الصلاة على الغريب » ، وبعد أيام وافى قبره شاعره المخلص أبو بحر ابن عبد الصمد، « فلما كان يوم العيد وانتشر الناس ضحىً ، وظهر كل متوارٍ وضحا ، قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم واختيالهم بزينتهم وحلاهم، وقال بعد أن طاف بقبره والتزمه، وخر على ترابه ولثمه :

ملكَ الملوكِ أسـامعٌ فأنادى ... أم قد عدتك عن السماع عوادى
لما خلتْ منك القصور فلم تكنْ ... فيها كما قد كنت فى الأعـياد
قبَّلتُ فى هذا الثرى لك خاضعاً ... وتخذتُ قبركَ موضع الإنشاد

وهى قصيدة أطال إنشادها ، فبكى وأبكى ، « وهذه نهاية كل عيش ، وغاية كل ملك وجيش ، والأيام لا تدع حياً ، ولا تألوا كل نشر طيا ، تطرق رزاياها كل سمع ، وتفرق مناياها كل جمع » . ومع ذلك بقيت مأساة المعتمد وإباؤه حية فى وجدان الأدب العربى ، لم يقترب منها النسيان لحظة ، يرتادها القاص ، والشاعر والمؤرخ والمتذوق ، يستلهمها إبداعاً ، أو يذرف عليها دمعاً ، أو يتخذها وثيقة ، أو يتخذمنها محوراً لرواية تدور حول أحداثها .

ونسى التاريخ بقية الملوك والطغاة ! .

● **ابن عبدون يرثى بنى الأفطس :**

وإلى الشمال من دولة العبابدة فى أشبيلية Sevilla قامت مملكة **بنى الأفطس** فى بطليوس Badajoz ، وكانوا يسابقون جيرانهم فى رعاية العلم ، وإشاعة الثقافة ، والإغداق على الأدباء ، وبلغت المملكة أوجها على أيام المظفر ، **محمد بن عبد الله بن الأفطس** ، وحكم فيما بين ٤٣٧ و٤٥٦ =١٠٤٥هـ=١٠٦٣م [١] وابنه المتوكل ، **أبو محمد**

---

(١) حتى زمن قريب كان المعتقد ان المظفر حكم الى عام ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م ، ولكن عثر اخيرا في اسبانيا على عملة باسم ابنه وخليفته يحيى المنصور مؤرخة في ٤٥٦ هـ = ١٠٤٥ م ، تصححنا تاريخ وفاته بما يتفق وهذا الاكتشاف الحديث .

عمر ، وحكم من ٤٦٠ إلى ٤٨٧هـ=١٠٩٤م، وإذا كان المعتمد وأبوه من قبل قد شهرا بالشعر ، فقد عرف المظفر بالعلم ، فكان راوية أدب ونحو وشعر ونوادر وأخبار ، وألف منها موسوعته المظفرى وجاءت فى خمسين مجلداً ، ورسخ ابنه المتوكل فى الشعر والنثر ، إلى شجاعة مفرطة ، وفروسية عالية ، فكان لا يغب الغزو ولا يشغله عنه شيء . وعرف بلاطهم — كبلاط جيرانهم — عدداً كبيراً من الشعراء والكتاب ، كابن السيد ، وابن سقبطورنة ، وابن سارة ، وابن البين ، وابن عبدون ، وابن عبد البر وغيرهم .

وكما جمع القدر بين الدولتين فى المنزع ، ومواجهة زحف النصارى الداهم من الشمال ، والاستنجاد بجيرانهم الأفريقيين وأخوتهم فى الدين ، جمع بينهم فى النهاية التعسة ، فكان زوال ملك بنى الأفطس — كبنى عباد — على يد المرابطين . وفى نفس العام ، وعلى نحو أشد قسوة وعنفاً إذ قتل المرابطون المتوكل ، ثم قتلوا ولديه الفضل والعباس من بعد ، قتلوا صبراً ، وضُربتْ أعناقهم فى غرة ٤٨٧ هـ — ١٠٩٤ م (١) .

وعندما طويت صفحة بنى الأفطس قال فيهم ابن عبدون ، أبو محمد عبد المجيد قصيدته التى يصفها عبد الواحد المراكشى بأنها « أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت فى الألباب فعل الخمر ، فجلت عن أن تُسامى ، وأنفت من أن تُضاهى ، فقل لها النظير ، وكثر إليها المشير ، وتساوى فى تفضيلها وتقديمها باقل وجرير » (٢) .

---

(١) ذكر المراكشى فى كتابه المعجب ص ٧٥ أنهم قتلوا عام ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م وهو وهم منه وقد ذكر ابن الأبار التاريخ صحيحا ، ومنه نقلنا ، فى كتابه الحلة السيراء جـ ٢ ص١٠٢ .

(٢) الوزير أبو محمد عبد المجيد ، من مدينة يابرة Evora ، كان شاعرا ناثرا لمع فى بلاط بنى الافطس ، ودخل بعد ذهابهم فى خدمة المرابطين ، انظر ترجمته فى :

- عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٦٤ وما بعدها .
- ابن الابار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ص ١٠٢ وما بعدها .
- ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٥١ .

وكان المراكشى ، من بين هؤلاء وغيرهم ، هو الوحيد الذى أورد القصيدة التى نحن بصددها كاملة .

بدأ ابن عبدون قصيدته بمطلع تقليدى يشكو فيه الدهر الفاجع ، والدنيا الخادعة ، والليالى القلب ، فكم من دولة هيأت لها الأيام أسباب النصر والتأييد ، ثم كرت عليها فسلبتها كل مامنحت ، ولم تبق لها على خبر :

الدهرُ يُفجع بعد العين بالأثرِ ... فما البكاءُ على الأشباحِ والصورِ
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظةً ... عن نَوْمةٍ بين نابِ الليثِ والظفُرِ
فلا تَغرنّكَ من دنياك نومتُها ... فما صناعةُ عينيها سوى السهرِ
ما لليالى ، أقال الله عثرتنا ... من الليالى ، وخانتها يدُ الغِيرِ
كم دولةٍ وليتْ بالنصر خدمتها ... لم تُبْقِ منها — وسل ذكراك من خبرِ

ومضى يذكر الدول والأسر والرجال الذين عدت عليهم صروف الليالى ، من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الفرس إلى اليونان ، فيشير إلى دارا والإسكندر ، وإلى طسم وعاد وجرهم ، وإلى ترف اليمنيين وحضارتهم ، وأهداف المضريين وغاياتهم ، وإلى كليب ومهلهل ، وامرىء القيس وأبيه ، وعدى بن زيد ومقتله ، وحرب داحس والغبراء ، وإلى يزدجرد آخر ملوك الفرس ، وهربه عن عرشه وقاعدة ملكه حين وطىء جيش سعد بن أبى وقاص أرض بلاده ، وإلى يوم القادسية وغزوة بدر ، ويشير إلى الكثيرين من صرعى المسلمين على امتداد تاريخهم ، كعمر وعثمان وعلى وغيرهم ، وإلى نكبة الأمويين ثم البرامكة من بعدهم ، والمستعين والمعتز من الخلفاء العباسيين ، ويختمها بالحديث عن مصرع المعتمد وبنيه ، وهو فى ذلك كله لايلتزم ترتيباً تاريخياً معينا ، إنما يستشهد بما يقع فى ذاكرته من معلومات وسيعة ، يمهد بها للحديث عن نكبة بنى الأفطس ، معتذراً لهم أو عنهم ، ومتأسياً بما حدث لسابقيهم :

هوتْ بدارا وفلّتْ غربَ قاتله ... وكان عَضّاً على الأملاكِ ذا أثرِ
واسترجعتْ من بنى ساسان ماوهبتْ ... ولم تدعْ لبنى يونان من أثرِ
وألحقت أختها طسماً ، وعادَ على ... عادٍ ، وجُرْهُمَ منها ناقضُ المِرَرِ

وما أقالتْ ذوى الهيئات من يَمَنٍ ... ولا أجارت ذوى الغايات من مُضَرِ
ومزّقتْ سَبأً فى كل قاصيةٍ ... فما التقى رائحٌ منهم بمبتكر
وأنفذتْ فى كُلَيْبٍ حُكمها ورمتْ ... مُهلْهلاً بين سمْعِ الأرض والبصر
ولم تَرُدَّ على الضلِّيلِ صحتَهُ ... ولا ثنتْ أسداً عن ربِّها حُجُر
ودوختْ آل ذُبْيانٍ وإخوتهم ... عَبْساً، وغصّتْ بنى بدرٍ على النهر
وألحقتْ بعدى بالعراقِ على ... يدِ ابنه أحمرَ العينين والشعرَ
وبلّغتْ يزْدَ جُرْدالصينَ واختزلتْ ... عنه سوى الفرْسِ جمعَ الترك والخزرَ
وخضّبتْ شيبَ عثمانٍ دماً وخطتْ ... إلى الزبَيْرِ ولم تَستَحيِ من عُمر
وليتها إذْ فدتْ عمراً بخارجةٍ ... فدت عليا بمن شاءتْ من البشر
وماوفتْ بعهودِ المستعين ولا ... بما تأكّدَ للمعتز من مِررَ
وأوثقتْ فى عُراها كلَّ معتمدِ ... وأشرقتْ بقذاها كل مُقْتدر
وروعتْ كلَّ مأمونٍ ومؤتمنٍ ... وأسلمتْ كلَّ منصورٍ ومنتصر
وأعثرتْ آل عبّادٍ لعاً لهمُ ... بذيْلِ زبّاءَ لم تنفرْ من الذعُر

وبعد هذه المقدمة الطويلة يبدأ الشاعر حديثه فى رثاء بنى الأفطس ، فيلعن اليوم الذى ذهبوا فيه ، ويبكى من بعدهم الأدب والكرم والشجاعة والحدود لاتجد من يحميها ويذود عنها :

بنى المظفَّرِ ، والأيامُ لا نَزِلتْ ... مراحلٌ ، والورى منها على سَفر
سُحقا ليومكُم يوماً ولا حملتْ ... بمثله ليلةٌ فى غابرِ العُمُر
مَن للأسرةِ ، أومن للأعنَّةِ ،أو ... من للأسنَّةِ يُهديها إلى الثُغر
مَن لليراعةِ ،أومن للبراعة،أو ... من للسماحة ، أو للنفع والضرر
أو دفْعِ كارثةٍ ، أو ردعِ آزفةٍ ... أو قمْعِ حادثةٍ تعيا عَلى القدَر

ويذكر فضل المتوكل أبو محمد عمر ، وابنيه الفضل والعباس ، وقد قتلهم المرابطون حين اجتاحوا أرض بطليوس ، ويأس على أيامهم الطيبة ؛ ويبكى فيهم الجلال والإباء والوفاء :

وَيحَ السماحِ ووَيحَ اليأسِ لوسَلِما واحسرةُ الدين والدنيا على عمر
سقتْ ثرى الفضلِ والعباس هامية تُعزَى إليهم سماحا لا إلى المطر

. . . .

ومرّ من كل شيءٍ فيه أطيبهُ حتى التمتعُ بالآصال والبُكَرِ

القصيدة طويلة ، تبلغ أبياتها خمسة وسبعين ، وتنم عن علم واسع واطلاع متبحر ، ذلك أن ابن عبدون لم يقنع بأن يجعل من قصيدته مجرد صرخة حزينة ، تعبر عن لوعة صادقة ، في أبيات ذات جرس جميل ، وإنما جعل منها معرضاً لكبار الرجال الذين أخنى عليهم الدهر ، وعظام الدول التي عصفت بها يد الحدثان ، في أسلوب صحيح يخالطه تأنق بين الحين والحين ، وهو يجهد القارئ ، ويبعث في نفسه الملل ، بما يلجأ إليه من اللعب بالألفاظ ، ومايستخدمه من الأخيلة البعيدة التصور ، فهي ليست قصيدة تثير كوامن المشاعر بقدر ماهي عرض موفق لعلم واسع مثقل بالزخارف والزينة ، وعندما نقارن بين قصيدة ابن اللبانة في بني عباد ، وقصيدة ابن عبدون في بني الأفطس ، نجد الأولى أحر عاطفة وأصدق مشاعر ، وعلة ذلك فيما يبدو أن ابن اللبانة كان يدين بحياته وشهرته لبني عباد ، فارتبط معهم شعورياً على نحو وثيق ، أما عبدون فكان وزيراً متمكناً ، لايدينّ بجاهه لأحد ، ولم يربط مستقبله بمستقبل الذين كان يعمل في بلاطهم ، وآية ذلك أنه دخل بعد ذهاب دولتهم ، في خدمة من ذهبت الدولة على يديه ، ومن قتل ممدوحيه : الأمير المرابطي سير بن أبي بكر .

وعلى الرغم من ذلك نالت قصيدة ابن عبدون شهرة غامرة ،وأصبحت مادة لشروح وتعليقات كثيرة ، أكبرها وأذيعها شرح عبد الملك بن عبد الله المعروف بابن بدرون من أدباء القرن السابع الهجرى ،الثالث عشر الميلادى ، وقد درس المستشرق الهولندى دوزى هذاالشرح ونشره فى لايدن عام ١٨٤٦ ، كما طبعت القصيدة فى مصر بشرحها على نحو تجارى عام ١٣٤٠ = ١٩٢١ .

وفى نفس العام الذى أزاح فيه المرابطون دولة بنى الأفطس ، كان السيد القنبيطور يقتحم مدينة بلنسية ، عام ١٠٩٤ م ، وبقيت تحت حكمه أعواماً ، عانت فيها من الشقاء والذل ، ألواناً ، مما عرضنا له فى كتابنا ملحمة السيد (١) تفصيلاً ، ويحدثنا التاريخ الإسبانى عن مرثية بليغة قالهاشاعر بى فى المدينة ، ولكن التاريخ العربى ، أو ماوصلنا من مصادره ، صمت عنها تماماً ، ولعلها ضاعت فى غمار الأحداث . ومن خلال المصادر الإسبانية أتينا على خبرها تفصيلاً وأفكارها تقريباً ، وشغلت الفصل التالى كله .

(١) انظر : ملحمة السيد ، دراسة مقارنة ، الطبعة الثانية دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١